بسم الله الرحمن الرحيم

شرح

صحيح مسلم

باب فضائل القرآن

وفضائل بعض السور

بقلم
سليمان بن محمد اللهيميد
الموقع على النت – رياض المتقين
www.almotaqeen.bet
القناة العلمية على التلجرام
https://t.me/aloheemeed

.

عَنْ عَائِشَةَ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ رَجُلاً يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ « يَرْحَمُهُ اللَّهُ لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً كُنْتُ أَسْقَطْتُهَا مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا) .

[خ : ٥٠٣٨] .

وفي رواية (رَحِمَهُ اللَّهُ لَقَدْ أَذْكَرَنِي آيَةً كُنْتُ أُنْسِيتُهَا) .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (بِئْسَمَا لأَحَدِهِمْ يَقُولُ نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ بَلْ هُوَ نُسِّيَ اسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ بِعُقُلِهَا) .

[خ : ٥٠٣٢] .

وفي رواية (لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ بَلْ هُوَ نُسِّيَ) .

وعن ابن عمر . أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ الإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ) .

[خ : ٥٠٣١] .

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا) .

[خ : ٥٠٣٣] .

==========

(**يَقُولُ نَسِيتُ**) بفتح النون وكسر السين .

(**آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ**) **قال ابن الجوزي** –رحمه الله– هي كلمة يُعَبَّر بها عن الجُمَل الكثيرة والحديث الطويل، ومثلها: ذَيْت وذَيْت.

(**بَلْ هُوَ نُسِّيَ**) بضم النون وتشديد السين ، قال الطيبي –رحمه الله– قوله: «بل نُسِّي» إشارة إلى عدم تقصيره في المحافظة؛ لكن الله تعالى نسَّاه لمصالح .

(**فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا**) وفي الرواية الأخرى: تفلتاً، **قال الخطابي** –رحمه الله– قوله (أشدُّ تفصِّيًا) يعني: ذهابًا وانفلاتًا، ويقال للرجل إذا تخلص من بليَّةٍ: قد تَفَصَّى منها، والاسم: الفصية.

(**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ**) **قال أبو العباس القرطبي** –رحمه الله– صاحب القرآن: هو الحافظ له، المشتغل به، الملازم لتلاوته، ولفظ الصحبة مستعمل في أصل اللغة على إِلْفِ الشيء وملازمته، ومنه: أصحاب الجنة، وأصحاب النار، وأصحاب النبي ﷺ .

١–الحديث دليلٌ على كَراهةِ قَولِ: نَسيتُ آيةَ كَذا، وهيَ كَراهةُ تَنزيهٍ، وأنَّه لا يُكرَهُ قَولُ: أُنسِيتُها .

٢–الحكمة من النهي :

قال النووي : وإنَّما نُهِي عن "نَسيتُها"؛ لأنَّه يَتضَمَّنُ التَّساهُلَ فيها والتَّغافُلَ عنها، وقد قال اللهُ تعالى: أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا .

وقال القاضي عِياضٌ: أولى ما يُتَأوَّلُ عليه الحَديثُ أنَّ مَعناه ذَمُّ الحالِ لا ذَمُّ القَولِ، أي: بِئسَت الحالةُ حالةُ مَن حَفِظَ القُرآنَ فغَفَلَ عنه حَتَّى نَسِيَه .

وقال القرطبي : ... وهو أَوْلَاها: إن نسيان القرآن إنما يكون لِتَرْكِ تعاهُده، وللغفلة عنه، كما أن حِفْظَه إنما يثبت بتكراره والصلاة به، كما قال في حديث ابن عمر (إذا قام صاحب القرآن يقرؤه بالليل والنهار ذَكَرَه، وإن لم يقم به نَسِيَهُ) فإذا قال الإنسان: نسيتُ آية كَيْتَ فقد شهد على نفسه بالتفريط وترك معاهدته له .

وقال ابن هبيرة : في هذا الحديث من الفقه أن الكلمة إذا كانت تحتمل معنيين: أحدهما يتضمن سوء أدب، فالأولى أن يعدل الإنسان عنها إلى كلمة لا تحتمل إلا معنى واحدًا خارجًا عما يحذر، فإن قوله: بئسما لأحدهم أن يقول نسيت . فإن نسيت تكون بمعنى تركت، ولا ينبغي لأحد أن يقول: تركت آية كذا وكذا، فإذا قال: نسيت آية كذا وكذا . خلص قوله من الاحتمال.

وقال ابن حجر –رحمه الله– واختُلف في متعلق الذم من قوله: «بئس» على أوجه:

الأول: قيل: هو على نسبة الإنسان إلى نفسه النسيان، وهو لا صُنع له فيه، فإذا نسبَه إلى نفسه أَوْهَمَ أنه انفرد بفعله، فكان ينبغي أن يقول: أُنْسِيْتُ ، أو نُسِّيتُ .

الوجه الثاني: وهو كالأول لكن سبب الذم ما فيه من الإشعار بعدم الاعتناء بالقرآن؛ إذ لا يقع النسيان إلا بترك التعاهد وكثرة الغفلة، فلو تعاهده بتلاوته والقيام به في الصلاة لدام حفظه وتذكُّره، فإذا قال الإنسان: نَسِيتُ الآية الفلانية، فكأنه شَهِدَ على نفسه بالتفريط، فيكون متعلق الذم: تَرْكُ الاستذكار والتعاهد؛ لأنه الذي يورث النسيان.

الوجه الثالث: قال الإسماعيلي: يحتمل أن يكون كَرِهَ له أن يقول: نَسِيْتُ بمعنى: تركتُ، لا بمعنى السهو العارض كما قال تعالى (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) وهذا اختيار أبي عُبيد وطائفة.

الوجه الرابع: قال الإسماعيلي أيضًا: يحتمل أن يكون فاعلُ (نَسِيْتُ) النبيَّ ﷺ كأنه قال: لا يقل أحد عني: إني نَسِيْتُ آية كذا، فإن الله هو الذي نسَّاني ذلك؛ لحكمة نسْخِهِ ورَفْعِ تلاوته، وليس لي في ذلك صنعٌ، بل الله هو الذي ينسيني لما تُنسخ تلاوته، وهو كقوله تعالى (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) فإن المراد بالْمَنْسِيِّ: ما يُنسخ تلاوتُه، فيُنْسِي اللهُ نبيَّه ما يريد نسخ تلاوته.

الوجه الخامس: قال الخطابي: يحتمل أن يكون ذلك خاصًّا بزمن النبي ﷺ، وكان من ضُروب النسخ: نسيان الشيء الذي ينزل، ثم ينسخ منه بعد نزوله الشيءُ، فيذهب رسْمُهُ وتُرفع تلاوته، ويسقط حِفْظُه عن حَمَلَته، فيقول القائل: نَسِيْتُ آية كذا، فنُهوا عن ذلك؛ لئلا يُتوهم على مُحْكَم القرآن الضياع، وأشار لهم إلى أن الذي يقع من ذلك إنما هو بإذن الله؛ لما رآه من الحكمة والمصلحة.

الوجه السادس: قال الإسماعيلي: وفيه وجه آخر: وهو أن النسيان الذي هو خلاف الذِّكْر إضافته إلى صاحبه مجازٌ؛ لأنه عارِضٌ له، لا عن قصد منه؛ لأنه لو قَصَد نسيان الشيء لكان ذاكرًا له في حال قصده، فهو كما قال: ما مات فلان ولكن أُمِيتَ، قلتُ: وهو قريب من الوجه الأول.

وأرجح الأوجه: الوجه الثاني، ويؤيده عطْفُ الأمر باستذكار القرآن عليه . (الفتح)

وقال الطيبي –رحمه الله– قوله (نَسِيْتُ آية كَيْتَ وَكَيْتَ) وذلك أن هذا القول يدل على أنه لم يتعاهد القرآن، ولم يُلازم عليه.

٣–قوله (... **بَلْ هُوَ نُسِّيَ**) .

هذا تلقين وتعليم أن يقول: نُسِّيْتُ، لا نَسِيْتُ.

قال الطيبي –رحمه الله– قوله (بل نُسِّي) إشارة إلى عدم تقصيره في المحافظة؛ لكن الله تعالى نسَّاه لمصالح.

وقال السندي –رحمه الله– (بل هو نُسِّي) بالتشديد، أي: الله تعالى قد أزال عن قلبه ما أزال، فليقل: نُسِّيت بالتشديد؛ لكونه أوْفَق بالواقع، وأبعد من الوقوع في المكروه.

٤–الأمر بتعاهد القرآن ومراجعته على الدوام خشية نسيانه .

لقوله (**تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ** ...) .

قال المناوي –رحمه الله– أي: داوموا على تكراره ودرسه؛ لئلا تنسوه.

وقال الطيبي –رحمه الله– قوله: «تعاهدوا القرآن» تعاهُد الشيء وتعهُّده: محافظتُه وتجديد العهد به، أي: واظبوا على تلاوته، وداوموا على تكراره ودرسه؛ كيلا يُنسى .

وقال العيني –رحمه الله– قوله: «تعاهدوا» مثل: تعهدوا، ومعناه: واظبوا عليه بالحفظ والترداد .

وقوله (**لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا**) **وفي الرواية (أشد تفصّيًا**) .

وقال الملا علي القاري –رحمه الله– (فو الذي نفسي بيده لهو) أي: القرآن، (أشد تفصّيًا) أي: فرارًا وذهابًا وتخلُّصًا وخروجًا.

قال البيضاوي –رحمه الله– (أشد تفَصّيًا) أي: أسرع تخلُّصًا وذهابًا وانفلاتًا من الإبل المعقلة إذا أطلقها صاحبُها، أو لم يُحكِم قيدَها، ولم يعاهد عليها.

٥–قوله (**مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا**) .

قال ابن حجر –رحمه الله– (من الإبل في عُقُلها) لأن من شأن الإبل تطلب التَّفلُّت ما أمكنها، فمتى لم يتعاهدها برباطها تفلَّتت، فكذلك حافظ القرآن إن لم يتعاهده تفلَّتَ؛ بل هو أشد في ذلك.

وقال المظهري –رحمه الله– (العُقُل) جمع عِقال، وهو ما يُشد به أحد ركبتي البعير إلى الأخرى؛ يعني: لو لم يكن البعير مشدودًا لفرَّ، فكذلك القرآن لو لم يقرأه الرجلُ لفرَّ من صدره ونسيَه.

٦–قوله (**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ الإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ ...**) .

قال العراقي –رحمه الله– الظاهر: أنَّ المراد بصاحب القرآن: حافظه، ويدل لذلك الزيادة التي أخرجها مسلم وغيره من حديث موسى بن عقبة: وإذا لم يقم به نسيه .

وقال العراقي –رحمه الله– (الْمُعَقَّلة)... شبَّهَ درسَ القُرآن، واستمرارَ تلاوتِهِ بِالعِقالِ الذي يَمنعُ البَعيرَ مِن الشِّرادِ، فما دامَ الدَّرسُ موجودًا فالحفظُ مستمرٌّ، وما دامَ العِقالُ موثوقًا فالبعيرُ محفوظٌ؛ وخَصَّ الإبلَ بالذِّكرِ لأنَّها أشدُّ الحيواناتِ الإنسيَّةِ شِرادًا ونُفورًا، وتَحصيلُها بعدَ نُفورِها أشقُّ وأصعَبُ مِن تَحصيلِ غيرِها بعدَ نُفورِهِ؛ ولهذا قالَ النَّبي ﷺ : «إنَّ لهذه الإبلِ أوابدَ كأوابدِ الوحشِ» وقالَ فيما رُوي عنه: «إنَّ على ذُروةِ سَنامِ كُلِّ بعيرٍ شيطان».

وقال الشيخ فيصل ابن المبارك –رحمه الله– خصّ الإبل بالذِّكر: لأنها أشد الحيوان الإنسي نفورًا، وفي تحصيلها حيث كان نفورها صعوبة .

٧–**قال الصنعاني** –رحمه الله– ولعل النكتة في التمثيل وخصوصية الإبل: الإشارة إلى أنَّ كلام الله تعالى لعلو شأنه، وعظمة مكانه، وكثرة علومه، وتتابع أنواره، لا تسكن قلوب الرجال إلا بالشد عليه، وقوة الإمساك بالتلاوة له، وإلا فإنَّ عظمة شأنه تقتضي مع تلوث العباد بالمعاصي، وعدم عملهم بعلومه، وتهديهم بأدائه، وهديهم بأنواره أن لا يقر في قلوبهم، ولا تكون صدورهم مساكنه، فكأنه ينفلت منها لولا عقاله بدوام التلاوة، فهذه –والله أعلم– هي نكتة الخصوصية في التمثيل .

٨–**قال الشيخ ابن عثيمين** –رحمه الله– (تَفلتًا) وهذا من حِكمة الله ـ عز وجل ـ أن يكون القرآن ينسى سريعاً لأجل أن يحرص الإنسان على تعاهده وكثرة تلاوته فيحصل له الأجر ويزداد أجراً .

٩–في هذا الحديث: التعاهد للقرآن، ودرسه، والقيام به.

١٠–وفيه: الإخبار أنه يذهب عن صاحبه وينساه، إن لم يتعاهد عليه ويقرأه، ويدمن تلاوته.

١١–**قال ابن عبد البر** : وفي هذا الحديث: دليل على أنَّ مَن لم يتعاهد علمه، ذهب عنه، أيّ مَن كان؛ لأن علمهم كان ذلك الوقت القرآن لا غير، وإذا كان القرآن الميسر للذكر يذهب إن لم يتعاهد، فما ظنك بغيره من العلوم المعهودة؟

فائدة :

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: وأخرج أبو عبيد من طريق الضحاك بن مزاحم موقوفًا؛ قال: ما مِن أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا بذنب أحدثه، لأن الله يقول: وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ونسيان القرآن من أعظم المصائب .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . عن النبي ﷺ قال (مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حسنِ الصوت يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجهرُ به) .

[خ : ٥٠٢٤] .

=========

(مَا أَذِنَ اللَّهُ لشيء مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حسنِ الصوت) قال ابن العربي –رحمه الله– (ما أَذِنَ الله لشيء ما أَذِنَ لنبي...) معناه: ما استمع لشيء كسماعه له .

وقال ابن القيم –رحمه الله– (ما أَذِن الله لشيء) إنما هو: ما استمع الله لشيء من كلام الناس ما استمع لنبي يَتَغَنَّى بالقرآن.

(يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ) معنى التغني به : تحسين الصوت به مع الجهر بها بخشوع وترقيق وتحزن من غير تكلف ولا مبالغة .

١–الحديث دليل على استحباب تحسين الصوت بالقرآن الكريم .

قال النووي –رحمه الله– يستحب تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها، ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط، فإن أفرط حتى زاد حرفًا، أو أخفى حرفًا فهو حرام. (الأذكار)

وقال النووي –رحمه الله– أيضًا: أجمع العلماء ﷺ مِن السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وأقوالهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشُّهرة، فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها . (التبيان)

وقال ابن قدامة –رحمه الله– فقد ثبت أن تحسين الصوت بالقرآن وتطريبَه مستحبٌّ غير مكروه، ما لم يخرج ذلك إلى تغيير لفظه، وزيادة حروف فيه .

وقال الرافعي –رحمه الله– تحسين الصوت لقراءة القرآن جائز، بل مندوب إليه .

لحديث الباب .

ولقوله ﷺ (زينوا القرآن بأصواتكم) .

ولقوله ﷺ (ليس منَّا مَن لم يتغنَّ بالقرآن) .

٢–معنى حديث الباب :

أي : ما استمع الله لشيء كسماعه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله : يعني : ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبيٍ يتغنى بالقرآن.

وقال البغوي رحمه الله : قوله (ما أَذِنَ الله لشيءٍ كأَذَنِه) يعني: ما استمع الله لشيء كاستماعه، والله لا يشغله سمع عن سمع، يقال: أَذِنْتُ للشيء آذَنُ أَذَناً: إذا سمعت له .

وقال ابن كثير رحمه الله: ومعناه أنَّ الله تعالى ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم وتمام الخشية ، وذلك هو الغاية في ذلك، وهو سبحانه وتعالى يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم، كما قالت عائشة رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم ؛ كما قال تعالى: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ)

الآية، ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ ؛ كما دل عليه هذا الحديث العظيم، ومنهم من فسر الأذَن هاهنا بالأمر، والأوَّل أولى؛ لقوله: (ما أذِنَ الله لشيءٍ كأَذَنِه لنبي يتغنى بالقرآن) أي يجهر به، والأذَن: الاستماع؛ لدلالة السياق عليه.

٣-ومعنى: تحسين الصوت بالقرآن .

قال ابن كثير -رحمه الله-: المراد من تحسين الصوت بالقرآن: تَطْريبه وتحزينه والتَّخشُّع به.

وقال الصنعاني -رحمه الله- المراد تحسين الصوت السَّليقِي الخَلْقي، من غير تكلُّفٍ لألحانٍ تخرجه عن طبعه.

٤-**قال ابن العربي** -رحمه الله- الأصوات الحسنة نعمة من الله تعالى، وزيادة في الخَلْق ومنَّة، وأحق ما لُبست هذه الحُلَّة النفيسة والموهبة الكريمة كتاب الله؛ فنِعَم اللهِ إذا صُرفت في الطاعة فقد قضي بها حق النعمة .

وقال الصنعاني -رحمه الله- تحسين الصوت مما يزيد القرآن حُسنًا عند السامع، ويدعوه إلى الإقبال على سماعه، ولكن شرطه: ألا يغير اللفظ، ولا يخل بالنظم، ولا يخفي حرفًا، ولا يزيد حرفًا، وإلا حرم إجماعًا .

٥-**قال ابن كثير** -رحمه الله- أحسن القراءة ما كان عن خشوع القلب ... والغرض أنَّ المطلوب شرعًا: إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن، وتفهُّمه، والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدَثَة المرَكَّبة على الأوزان والأوضاع الْمُلهية والقانون الموسيقائي، فالقرآن يُنَزَّه عن هذا، ويُجَلُّ ويعظَّمُ أن يُسْلَك في أدائه هذا المذهب، وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك، كما قال الإمام العلم أبو عبيد القاسم بن سلام -رحمه الله- .

عن بريدة . قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ أَوِ الأَشْعَرِيَّ أُعْطِيَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ) .

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَبِي مُوسَى (لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ) .

[خ : ٥٠٤٨] .

==========

(**أُعْطِيَ مِزْمَارًا**) **قال القرطبيّ** -رَحِمَهُ اللَّهُ-: الْمِزمار والْمَزمور: الصوت الحسن، وبه سُمِّيت آلة الزَّمْر مزمارًا.

(**مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**) عليه السلام، زاد أبو عوانة في "مسنده" من طريق شعيب بن حرب، عن مالك بن مِغْوَل: "وهو مؤمنٌ مُنِيبٌ" والمراد بـ (آل داود) داود النبيّ عليه السلام نفسه، و"آل" صلةٌ.

ومزامير داود: ما كان يتغنَّى به من الزَّبُور، وضُرُوب الدُّعاء، وجمع مِزمار ومَزْمور.

١- بيان استحباب استماع قراءة القارئ الحسن الصوت.

قال النوويّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: قال العلماء: المراد بالمزمار هنا الصوت الحسن، وأصل الزَّمْر الغِنَاء، و"آل داود" هو داود -عليه السلام نفسه، وآل فلان قد يُطْلَق على نفسه، وكان داود ﷺ حسن الصوت جِدًّا.

وقال ابن الأثير -رَحِمَهُ اللَّهُ-: المزمور، بفتح الميم وضمّها: هو الآلة التي يُزَمَّر بها، شبّه حسن تلاوته، وحلاوة نَغْمَته بصوت المزمار، وداود هو النبيّ عليه السلام، وإليه المنتهى في حسن الصوت بالقراءة، و"الآل" في قوله: "آل داود" مُقحمةٌ، قيل: معناه ها هنا الشخص.

٢-استحباب تحسين الصوت في القراءة، وأن ذلك لا ينافي الإخلاص .

ويدل على ذلك : ما جاء عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ ، قَالَ (اسْتَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قِرَاءَتِي مِنَ اللَّيْلِ ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ ، قَالَ : يَا أَبَا مُوسَى، اسْتَمَعْتُ قِرَاءَتَكَ اللَّيْلَة، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ عَلِمْتُ مَكَانَكَ، لَحَبَّرْتُه لَكَ تَحْبِيرًا) رواه النسائي في السنن الكبرى ، وابن حبان .

والتحبير: تحسين الصوت وتحزينه .

قال الحافظ ابن كثير : دل هذا على جواز تعاطي ذلك وتكلُّفه، وقد كان أبو موسى قد أُعطي صوتاً حسناً، مع خشية تامة، ورقة أهل اليمن؛ فدل على أن هذا من الأمور الشرعية .

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله- وفي هذا دليل على أن الإنسان لو حسَّن صوتَه بالقرآن لأجل أن يتلذذ السامع ويسر به: فإن ذلك لا بأس به، ولا يعدُّ من الرياء، بل هذا مما يدعو إلى الاستماع لكلام الله عز وجل حتى يُسر الناس به.

قال الحافظ : وَلَا شَكّ أَنَّ النُّفُوس تَمِيل إِلَى سَمَاع الْقِرَاءَة بِالتَّرَنُّمِ أَكْثَر مِنْ مَيْلِهَا لِمَنْ لَا يَتَرَنَّم ، لِأَنَّ لِلتَّطْرِيبِ تَأْثِيرًا فِي رِقَّة الْقَلْب وَإِجْرَاء الدَّمْع ...

وَالَّذِي يَتَحَصَّل مِنْ الْأَدِلَّة أَنَّ حُسْنَ الصَّوْت بِالْقُرْآنِ مَطْلُوب، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَسَنًا فَلْيُحَسِّنْهُ مَا اِسْتَطَاعَ كما قال ابن أبي مُلَيكة . انتهى

وقال: وَأَخْرَجَ اِبْن أَبِي دَاوُدَ مِنْ طَرِيق اِبْن أَبِي مُسْجِعَة قَالَ: كَانَ عُمَر يُقَدِّم الشَّابّ الْحَسَن الصَّوْت لِحُسْنِ صَوْته بَيْن يَدَيْ الْقَوْم . (فتح الباري)

٣-بيان ما أكرم الله به أبا موسى الأشعريّ ﷺ حيث أعطاه صوتًا حسنًا.

وأخرج ابن حبّان في "صحيحه" عن أبي هريرة (أن رسول الله ﷺ سمع قراءة أبي موسى الأشعريّ، فقال: "قد أوتي هذا من مزامير آل داود"، قال أبو سلمة: وكان عمر بن الخطّاب يقول لأبي موسى -وهو جالسٌ في المجلس-: يا أبا موسى ذكِّرنا ربّنا، فيقرأ عنده أبو موسى، وهو جالسٌ في المجلس، ويتلاحن) .

٤-استحباب الاستماع إلى القرآن والإنصات له.

عن عَبْدَ اللَّهِ بْن مُغَفَّلٍ الْمُزَنِي قال (قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فِي مَسِيرٍ لَهُ سُورَةَ الْفَتْحِ عَلَى رَاحِلَتِهِ فَرَجَّعَ فِي قِرَاءَتِهِ. قَالَ مُعَاوِيَةُ لَوْلاَ أَنِّ أَخَافُ أَنْ يَجْتَمِعَ عَلَيَّ النَّاسُ لَحَكَيْتُ لَكُمْ قِرَاءَتَهُ) .

[خ : ٤٢٨١] .

==========

(**عن عَبْدَ اللَّهِ بْن مُغَفَّلٍ الْمُزَنِي**) بضمّ الميم، وفتح الزاي .

(**قال : قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ**) أي : في سنة فتح مكة .

(**فِي مَسِيرٍ لَهُ سُورَةَ الْفَتْحِ**) زاد في رواية البخاري (قراءةً لَيِّنةً) .

(**عَلَى رَاحِلَتِهِ**) ناقته التي ركبها .

(**فَرَجَّعَ فِي قِرَاءَتِهِ**) (فرَجَّعَ) بتشديد الجيم، من الترجيع، وهو: ترديد القارئ الحرف في الحلق، قاله في "الفتح"، وقال في "النهاية": الترجيع: ترديد القراءة، ومنه ترجيع الأذان، وقيل: هو تقارب ضُرُوب الحركات في الصوت.

١-الحديث دليل استحباب تحسين الصوت بالقرآن والترجيع فيه .

والمقصود بالترجيع ههنا هو تحسين الصوت والتغني بالقرآن الكريم عند الإتيان بالمدود، من خلال ترديد الصوت بالحلق وإشباع المد .

قال ابن حجر : الترجيع : هو تقارب ضروب الحركات في القراءة ، وأصله الترديد ، وترجيع الصوت ترديده في الحلق .

٢-قال ابن حجر : وقد فسره كما سيأتي في حديث عبد الله بن مغفل المذكور في هذا الباب في كتاب التوحيد بقوله : (أ ا أ) بهمزة مفتوحة ، بعدها ألف ساكنة ، ثم همزة أخرى .

ثم قالوا : يحتمل أمرين :

أحدهما : أن ذلك حدث من هز الناقة .

والآخر : أنه أشبع المد في موضعه فحدث ذلك .

وهذا الثاني أشبه بالسياق ، فإن في بعض طرقه (لولا أن يجتمع الناس لقرأت لكم بذلك اللحن) أي : النغم .

وقد ثبت الترجيع في غير هذا الموضع :

فأخرج الترمذي في " الشمائل " والنسائي وابن ماجه وابن أبي داود واللفظ له من حديث أم هانئ : كنت أسمع صوت النبي ﷺ وهو يقرأ وأنا نائمة على فراشي يرجع القرآن .

والذي يظهر أن في الترجيع قدراً زائداً على الترتيل :

فعند ابن أبي داود من طريق أبي إسحاق ، عن علقمة قال : بِتُّ مع عبد الله بن مسعود في داره ، فنام ثم قام ، فكان يقرأ قراءة الرجل في مسجد حيه لا يرفع صوته ويسمع من حوله ، ويرتل ولا يرجع .

وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة : معنى الترجيع : تحسين التلاوة ، لا ترجيع الغناء ؛ لأن القراءة بترجيع الغناء تنافي الخشوع الذي هو مقصود التلاوة . (فتح الباري)

وقال ابن القيم : إذا جمعت هذه الأحاديث إلى قوله (زينوا القرآن بأصواتكم) وقوله (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) وقوله (ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقران) علمت أن هذا الترجيع منه ﷺ كان اختياراً، لا اضطراراً لهز الناقة له، فإن هذا لو كان لأجل هز الناقة، لما كان داخلا تحت الاختيار، فلم يكن عبد الله بن مغفل يحكيه ويفعله اختياراً ليؤتسى به ، وهو يرى هز الراحلة له حتى ينقطع صوته، ثم يقول كان يرجع في قراءته، فنسب الترجيع إلى فعله، ولو كان من هز الراحلة لم يكن منه فعل يسمى ترجيعاً . (زاد المعاد)

عن الْبَرَاءَ قال (قَرَأَ رَجُلٌ الْكَهْفَ وَفِي الدَّارِ دَابَّةٌ فَجَعَلَتْ تَنْفِرُ فَنَظَرَ فَإِذَا ضَبَابَةٌ أَوْ سَحَابَةٌ قَدْ غَشِيَتْهُ قَالَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : اقْرَأْ فُلاَنُ فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ عِنْدَ الْقُرْآنِ أَوْ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ) .

[خ : ٥٠١١] .

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِي (أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا قَالَ أُسَيْدٌ فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا –قَالَ– فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي إِذْ جَالَتْ فَرَسِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْرَأِ ابْنَ حُضَيْرٍ، قَالَ فَقَرَأْتُ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْرَأِ ابْنَ حُضَيْرٍ، قَالَ فَقَرَأْتُ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، اقْرَأِ ابْنَ حُضَيْرٍ، قَالَ فَانْصَرَفْتُ. وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : تِلْكَ الْمَلاَئِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ) .

==========

(**عن الْبَرَاءَ**) بن عازب الصحابي الجليل .

(**قال : قَرَأَ رَجُلٌ الْكَهْفَ وَفِي الدَّارِ دَابَّةٌ**) وفي الرواية الأخرى (وَعِنْدَهُ فَرَسٌ) .

(**فَجَعَلَتْ تَنْفِرُ فَنَظَرَ فَإِذَا ضَبَابَةٌ أَوْ سَحَابَةٌ قَدْ غَشِيَتْهُ**) أي : غطته .

(**اقْرَأْ فُلاَنُ**) أي : استمر في قراءتك .

(**فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ**) سيأتي تعريفها إن شاء الله .

(**تَنَزَّلَتْ عِنْدَ الْقُرْآنِ أَوْ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ**) أي: لاستماع القرآن، كما قال في الرواية الآتية (تلك الملائكة، كانت تستمع لك).

(**أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ**) –بضمّ الحاء المهملة، وفتح الضاد المعجمة، آخره راء–.

(**بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ**) بكسر الميم، وفتح الموحّدة: هو الموضع الذي تُجَفَّف فيه التمر، كالْبَيْدر للحنطة ونحوها .

(**إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ**) أي : وَثَبَت ، زاد في رواية البخاريّ (فَسَكَتَ، فَسَكَنَتْ) .

(**قَالَ أُسَيْدٌ فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى**) اسم ولده كان نائماً إلى جنبه .

(**فَقُمْتُ إِلَيْهَا**) أي : إلى الفرس .

(**فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي**) هي السحابة فوق رأسي .

(**فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ**) بضمّتين: جمعُ سِرَاج، وهو: المصباح، شَبّه الأنوار التي راها في السحابة بالمصابيح، بجامع الإضاءة، ووضوح الأشياء بها، والله تعالى أعلم.

(**عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ**) أي : صعدت .

(**فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : اقْرَأِ ابْنَ حُضَيْرٍ**) المعنى؛ أنه كان ينبغي أن تستمرّ على قراءتك، وليس أمرًا له بالقراءة في حالة التحديث، وكأنه استحضر صورةَ الحال، فصار كأنه حاضر عنده لَمّا رأى ما رأى، فكأنه يقول: استَمِرّ على قراءتك؛ لتستمر لك البركة بنزول الملائكة، واستماعها لقراءتك .

قال القرطبي –رَحِمَهُ اللهُ–: قوله ﷺ لابن حُضير: "اقرأ" عند إخباره له بما رأى، هو أمر له بالمداومة على القراءة فيما يستأنفه فرحًا بما أطلعه الله تعالى عليه، وكرّر ذلك تأكيدًا.

(**تِلْكَ الْمَلاَئِكَةُ**) أي: الظلّة التي رأيتها هي الملائكة .

(**كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ**) أي: لسماع قراءتك، وفي رواية البخاريّ (تلك الملائكة دَنَتْ لصوتك) وفي رواية أُبيّ بن كعب (وكان أُسيد حسن الصوت) .

(**وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ**) **قال القرطبي** : -رَحِمَهُ اللَّهُ-: يعني: لو دُمت على حالتك في قراءتك لأصبحت على تلك الحال ظاهرةً للناس، لكنه قطع القراءة، فارتفعت الملائكة، وغابت لتخصيص الكرامة به، وليعمَلَ الناس على التصديق بالغيب.

١-فضل تلاوة القرآن الكريم ، وأنها سبب في حصول الرحمة وتنزل السكينة ، والمراد بها هنا الملائكة .

وقد جاء في الحديث (وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ).

والسكينة هي الطمأنينة التي يلقيها الله في قلوب عباده، فتبعث على السكون والوقار، وتثبت القلب عند المخاوف، فلا تزلزله الفتن، ولا تؤثر فيه المحن، بل يزداد إيمانا ويقيناً .

قال النوويُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: قد قيل في معنى السكينة هنا أشياء، المختار أنها شيء من مخلوقات الله تعالى، فيه طمأنينة ورحمة، ومعه الملائكة.

وقال القرطبيّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: السكينة مأخوذة من السكون، وهو القار والطُّمأنينة، وهي هنا اسم للملائكة، كما فسّرها في الرواية الأخرى، وسمّاهم بذلك؛ لشدّة وقارهم، وسكونهم؛ تعظيمًا لقراءة هذه السورة .

وقال أبو هِلالٍ العَسكريُّ : السَّكينةُ مفارَقةُ الاضطرابِ عندَ الغضَبِ والخوفِ .

وقال عبدُ الرَّحمنِ السَّعديُّ : السَّكينةُ ما يجعَلُه اللهُ في القلوبِ وقتَ القلاقِلِ والزَّلازِلِ والمفظِعاتِ؛ ممَّا يُثَبِّتُها ويُسَكِّنُها ويجعَلُها مُطمَئِنَّةً، وهي مِن نِعَمِ اللهِ العظيمةِ على العبادِ .

٢-بيان إكرام الله تعالى عبده المؤمن المخلص في قراءته الخاشع المنيب، حيث يُنزل الله تعالى ملائكته ليستمعوا قراءته، ويؤانسوه بما معهم من النور والطمأنينة، كرامة له، ليزداد يقينًا مع يقينه، واجتهادًا مع اجتهاده.

٣-فضل السكينة ، ومن أسباب حصولها :

تلاوة القرآن .

كما في أحاديث الباب .

والإكثار من ذكر الله .

قال تعالى (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) .

وقال ﷺ (ما اجتمع قوم في بيت ... إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَة) .

إحسانُ الظنِّ بالله عز وجل .

عن خبَّاب بن الأرتِّ قال (شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بُردةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصرُ لنا؟! ألا تدعو الله لنا؟! قال: ... والله ليتمنَّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاءَ إلى حضرَموتَ، لا يخافُ إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون) رواه البخاري.

طلب رضا الخالق والاستغناء عن المخلوقين .

عن أنس بن مالكٍ ﷺ، عن النبيّ ﷺ قال (ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ...). رواه البخاري

٤-قال أبو الدرداء: ما قلَّد الله عبدًا قلادةً أفضل من السكينة .

وقال عبدالله بن مسعود : السكينة مغنَم، وتركُها مغرَم .

٥-السكينة هِبة ربانية ومنحة إلهية ينزلها المولى جل وعلا على عباده المؤمنين لتكون معينة لهم على ما يواجههم في حياتهم من الحوادث والأقدار الكونية والشرعية .

قال ابن القيم : هذه المنزلة من منازل المواهب، لا من منازل المكاسب .

قال تعالى (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً) .

يقول السعدي : يخبر تعالى عن منّته على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، وتضعف النفوس، فمن نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يثبته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه .

٦-في الحديث دلالة واضحة على كرامات أولياء الله الصالحين وعلوّ شأنهم .

٧-إدراك الدواب والحيوانات لما لا يدركه البشر، فقد نفرت الفرس وهاجت لرؤيتها أو إحساسها بما نزل من السكينة والملائكة قبل أن يتنبه الرجل لها، مما يدل على أن لبعض الحيوانات إدراكاً وحساً لبعض المغيبات التي تحجب عن أعين البشر لحكمة .

٨-الحث على مداومة القراءة واغتنام نفحات الله: قول النبي ﷺ: اقْرَأْ فُلَانُ فيه تحضيض على الاستمرار في القراءة وعدم الانقطاع عنها، واغتنام ما يتنزل من البركات وحضور الملائكة، والاستكثار من هذا الخير العظيم .

٩-الرجوع إلى أهل العلم والنبوة عند وقوع المشكلات: حرص الصحابة رضوان الله عليهم على مراجعة النبي ﷺ وعرض ما يحدث لهم من وقائع وأحوال ليعرفوا حقيقتها ويفقهوا حكمها وتوجيهها .

١٠-**قال ابن بطال** : وفى هذا الحديث أن الملائكة تحب أن تسمع القرآن من بنى آدم لا سيما قراءة المحسنين منهم ،كما جاء في اللفظ الآخر للحديث: تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ .

١١-فضل صلاة الليل والتلاوة في الخلوات ، فوقوع هذه الحادثة في جوف الليل والدار خالية دليل على شرف قيام الليل وبركة التبتل وتلاوة القرآن في أوقات السكون والهدوء، حيث تكون النفحات الربانية أرجى وأقرب للتنزل .

١٢-الشَفَقة وحفظ النفس مقدّمان على الاسترسال في النوافل ، فتوقّف الصحابي عن القراءة حين خشي أن تطأ دابته النفورُ ابنَه الصغير يحيى، مما يُستنبط منه مشروعية قطع القراءة أو الاسترسال في النوافل لدفع الضرر وحماية النفس وإغاثة الضعيف .

١٣-الجمع بين روايات تنزل «السكينة» وروايات تنزل «الملائكة» يوضح أن السكينة تحفّها الملائكة وتنزل معها، وأن حضور الملائكة يورث قلوب المؤمنين هدوءاً ووقاراً وطمأنينة .

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِى لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِى لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ) .

[خ : ٥٤٢٧] .

==========

١-في هذا الحديث يبين النبي ﷺ حال الذي يقرأ القرآن والذي لا يقرأه .

أولاً : المؤمن الذي يقرأ القرآن :

جاء عند البخاري (ويعمل به) وهي زيادة مفسرة للمراد، وأن التمثيل وقع بالذي يقرأ القرآن، ولا يخالف ما اشتمل عليه، من أمر، ونهي، لا مطلق التلاوة. وعبّر بصيغة المضارع لإفادة تكريره لها، ومداومته عليها، حتى صارت دأبه وعادته، كفلان يَقري الضيف، ويحمي الحريم، ويُعطي اليتيم.

فهذا الذي يقرأ القرآن ويعمل به : مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ .

والأُتْرُجَّةِ ثَمَرٌ جامِعٌ لِطِيبِ الطَّعْمِ والرَّائحةِ وحُسْنِ اللَّونِ، ومَنافِعُه كَثيرةٌ.

وذلك لأن القرآن الكريم به حياةُ القلوب، فمن قرأه وعمِل به طاب ظاهرًا وباطنًا، ولقد اشتكى الرسول ﷺ من هجر كتاب الله تعالى؛ قال تعالى (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) .

وجه الشبه :

طعمها طيب: إشارة إلى طيب باطنه بثبوت الإيمان وصلاحه .

ريحها طيب: إشارة إلى تلاوته لكتاب الله تعالى، حيث ينتفع الناس بسماع صوته ويتعلمون منه ويثابون بالاستماع إليه .

قال ابن حجر : ثمَّ قِيلَ: الْحِكْمَةُ فِي تَخْصِيصِ الْأُتْرُجَّةِ بِالتَّمْثِيلِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْفَاكِهَةِ الَّتِي تَجْمَعُ طِيبَ الطَّعْمِ وَالرِّيحِ كَالتُّفَّاحَةِ لِأَنَّهُ يُتَدَاوَى بِقِشْرِهَا وَهُوَ مُفْرِحٌ بِالْخَاصِّيَّةِ، وَيُسْتَخْرَجُ مِنْ حَبِّهَا دُهْنٌ لَهُ مَنَافِعُ وَقِيلَ: إِنَّ الْجِنَّ لَا تَقْرَبُ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الْأُتْرُجَّ فَنَاسَبَ أَنْ يُمَثِّلَ بِهِ الْقُرْآنُ الَّذِي لَا تَقْرَبُهُ الشَّيَاطِينُ، وَغِلَافُ حَبِّهِ أَبْيَضُ فَيُنَاسِبُ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ، وَفِيهَا أَيْضًا مِنَ الْمَزَايَا كِبَرُ جُرْمِهَا وَحُسْنُ مَنْظَرِهَا وَتَفْرِيحُ لَوْنِهَا وَلِينُ مَلْمَسِهَا، وَفِي أَكْلِهَا مَعَ الِالْتِذَاذِ طِيبُ نَكْهَةٍ وَدِبَاغُ مَعِدَةٍ وَجَوْدَةِ هَضْمٍ، وَلَهَا مَنَافِعُ أُخْرَى مَذْكُورَةٌ فِي الْمُفْرَدَاتِ.

ثانياً : وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِى لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ .

وجه الشبه :

طعمها حلو وطيب: لوجود أصل الإيمان والخير في قلبه، وحسن باطنه ومعاملته .

لا ريح لها: لخلوّه من التلاوة، فلا يتعدى أثر قراءته إلى غيره، وإن كان باطنه سليمًا بالإيمان .

ثالثاً : وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ .

ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة :

لها رائحة طيبة لكن طعمها مر لأن المنافق في ذاته خبيث لا خير فيه والمنافق هو الذي يظهر أنه مسلم ولكن قلبه كافر والعياذ بالله .

رابعاً : وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِى لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ .

المنافق الذي لا يقرأ القرآن (كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ) .

شُبّه بنبتة الحنظل المضروب بها المثل في الشدة والرداءة .

وجه الشبه:

ليس لها ريح: لعدم تلاوته للقرآن، فليس في ظاهره خير يُستنار أو يُنتفع به .

طعمها مر: لظلمة باطنه بالكفر والنفاق وخبث سريرته، فاجتمع عليه قبح الظاهر والباطن .

٢-فضل تلاوة القرآن مع العمل به ، فالروايات الأخرى فسّرت التلاوة بالعمل؛ كقوله ﷺ (المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة) مما يدل على أن المقصود تلاوة يتبعها تدبر وامتثال .

٣-تفاوت مراتب المؤمنين، فالمؤمن القارئ للقرآن العامل به أعلى رتبة وخيرًا من المؤمن المقصر في تلاوته وإن كان كلاهما على خير في أصل الإيمان .

٤-أن الإيمان والقرآن يجتمعان في المؤمن فيكون أكمل وأطيب؛ فالمؤمن القارئ للقرآن شُبِّه بالأُتْرُجَّة: طيب ريحها وطعمها.

٥-الحث على تلاوة القرآن باستمرار، وعدم هجره.

٦-أن نفع القرآن يتعدى إلى الآخرين؛ كما أن رائحة الأترجة الطيبة ينتفع بها من حولها، فكذلك قارئ القرآن ينتفع الناس بعلمه وخلقه وتلاوته.

٧-أن المؤمن الذي لا يقرأ القرآن عنده خير عظيم؛ فقد شُبِّه بالتمرة، طعمها حلو وإن لم يكن لها رائحة.

٨-بيان خطر النفاق؛ فالمنافق قد يقرأ القرآن، لكن قراءته لا تنفعه مع فساد باطنه.

٩-أن حسن الظاهر وحده لا يكفي؛ فالمنافق القارئ للقرآن شُبِّه بالريحانة: رائحتها طيبة، لكن طعمها مر.

١٠-أن اجتماع سوء الباطن مع هجر القرآن من أشد الأحوال سوءًا؛ ولذلك شُبِّه المنافق الذي لا يقرأ القرآن بالحنظلة، لا ريح لها وطعمها مر.

١١-اهتمام الإسلام بصلاح الظاهر والباطن معًا؛ فالمطلوب أن يكون المسلم صالح القلب، عامرًا بالقرآن، حسن الخلق والأثر.

١٢-تنوع الناس في علاقتهم بالقرآن؛ فمنهم من يجمع بين الإيمان وقراءة القرآن، ومنهم المؤمن الذي يقصر في التلاوة، ومنهم من يقرأ القرآن دون أن ينتفع به بسبب نفاقه.

١٣-جمال أسلوب النبي ﷺ في التعليم؛ فقد استخدم الأمثال بالأشياء المحسوسة لتقريب المعاني إلى الأذهان.

١٤-القراءة ليست المقصودة لذاتها فقط، بل المقصود أن تؤثر في القلب والعمل والسلوك.

١٥-صلاح الباطن هو الأصل؛ لأن النبي ﷺ جعل المؤمن القارئ للقرآن أطيب حالًا من غيره، فجمع له بين الإيمان والعمل.

١٦-ليس ترك التلاوة أمرًا يسيرًا؛ فالحديث يبين الفرق بين المؤمن الذي يقرأ القرآن والمؤمن الذي لا يقرؤه.

١٧-ينبغي للمسلم أن يجعل لنفسه وردًا من القرآن، ولو كان قليلًا، مع المحافظة والاستمرار.

١٨-الاستمرار أهم من الانقطاع؛ فالغاية أن تبقى صلة المسلم بالقرآن حاضرة في حياته.

١٩-في الحديث تحذير من النفاق والرياء؛ لأن الإنسان قد يحسن مظهره أمام الناس بينما يكون باطنه مخالفًا لذلك.

٢٠-الحديث يجمع بين الترغيب والترهيب؛ يرغب في الإيمان وقراءة القرآن، ويحذر من النفاق وهجر القرآن.

الخلاصة :

يمكن تلخيص معاني الحديث :

مؤمن + قارئ للقرآن = الأُتْرُجَّة (إيمان في الباطن، وقرآن ظاهر، وخير ونفع) .

مؤمن + غير قارئ للقرآن = التمرة (عنده أصل الخير والإيمان، لكنه حُرم من فضل التلاوة وأثرها) .

منافق + قارئ للقرآن = الريحانة (حسن ظاهر، وفساد باطن) .

منافق + غير قارئ للقرآن = الحنظلة (فساد الباطن، وفساد الظاهر، فلا خير يُرجى منه) .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَالَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ) .

[خ : ٤٩٣٧] .

==========

(**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ**) هو الحاذق المتقن لحفظه وتلاوته ، السليم في نطقه الذي لا يتوقف ولا تشق عليه القراءة .

وجاء عند البخاري (مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له) .

(**السَّفَرَةِ**) هم الملائكة؛ لأنهم يسفرون بالوحي والكتب إلى الأنبياء، وقيل هم الرسل.

(**الْكِرَامِ**) يعني الشرفاء أصحاب القدر العالي .

(**الْبَرَرَةِ**) البررة جمع بارّ وهم المطيعون لله عز وجل.

قال القرطبي : فمعنى بررة: مطيعون لله، صادقون لله في أعمالهم.

وقال ابن حجر –رحمه الله– و(البَرَرَة) أي: المطيعين المطهَّرين من الذنوب .

(**وَالَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ**) وهو الذي يتردد في تلاوته ويتقطع صوته لضعف حفظه أو قراءته.

(**وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ**) أي : يجد صعوبة ومشقة في النطق أو الحفظ.

(**لَهُ أَجْرَانِ**) أجر على تلاوته وقراءته، وأجر ثانٍ على مشقته ومحاولته وجهده .

١–الحديث دليل على الفضل العظيم للماهر بالقرآن .

فمن هو الماهر ؟

قال ابن بطال –رحمه الله– قال المهلب: المهارة بالقرآن: جودة التلاوة له بجودة الحفظ، فلا يتلَعثمُ في قراءته، ولا يتغيَّر لسانه بتشكك في حرف أو قصة مختلفة النص، وتكون قراءته سمحةً بتيسير الله له كما يسّره على الملائكة الكِرام البَرَرَة، فهو معها في مثل حالها من الحفظ، وتيسير التلاوة، وفي درجة الأجر إن شاء الله، فيكون بالمهارة عند الله كريمًا برًّا.

وقال النووي –رحمه الله– الماهر: الحاذق الكامل الحفظِ الذي لا يتوقَّف ولا يشق عليه القراءة؛ بجودة حفظه وإتقانه.

وقال الملا علي القاري –رحمه الله– (الماهر بالقرآن) أي: الحاذق من المهارة، وهي الحذق، جاز أن يريد به جودة الحفظ أو جودة اللفظ، وأن يريد به كليهما، وأن يريد به ما هو أعمُّ منهما .

ومما يدل على المراد بالماهر المتقن الحافظ للقرآن رواية البخاري (وهو حافظ له مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ) .

٢–وقد اجتمعت في هؤلاء الملائكة الذين يصاحبهم الماهرون في القرآن العاملون بما فيه، اجتمعت فيهم جملة أوصاف عظيمة: شرف المَلَكِيَّة، وشرف السِّفارة، وشرف الأمانة على الكتب المنزلة وتأديتها إلى المرسلين، وشرف الكتابة لأعمال العباد ورفعها إلى رب العالمين.

ففي ذكر هذه الأوصاف للملائكة : تنبيه على أنه لا يستحق شرف صحبتهم إلا من يَمْهَر في صفاتهم: فيحفظ القرآن الكريم، ويمهَر في حفظه، ويمهَر في تدبره والعمل به، ويمهَر في أنواع البر والخير والطاعة، ويؤدي ذلك-ما استطاع- إلى عباد الله تعليمًا وهدايةً وإرشادًا.

فينبغي للمسلم أن يجتهد في حفظ القرآن ويتمهر فيه حفظاً وعملاً لينال هذا الأجر الكبير .

٣-فضل حفظ القرآن الكريم ، مزايا حافظ القرآن:

أولاً: يقدم على غيره في الصلاة.

عن أَبي مسعودٍ عقبةَ بن عمرو البدري الأنصاري ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ (يَؤُمُّ القَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ الله ...) .

وحديث ابن عمر قال (لما قدم المهاجرون الأولون العصبة موضع بقباء قبل مقدم رسول الله ﷺ كان يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة وكان أكثرهم قرآناً) رواه البخاري.

ثانياً : يقدَّم على غيره في القبر في جهة القبلة إذا اضطررنا لدفنه مع غيره.

لحديث جابر قال (كان النَّبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى "أحد" في ثوب واحد ثم يقول: أيهم أكثر أخذاً للقرآن؟ فإذا أشير له إلى أحدهما قدَّمه في اللحد وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة وأمر بدفنهم في دمائهم ولم يغسلوا ولم يصل عليهم).

ثالثاً : يقدّم في الإمارة والرئاسة إذا أطاق حملها.

عن عامر بن واثلة (أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر ﷺ بعسفان وكان عمر يستعمله على مكة فقال: من استعملتَ على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى! قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا! قال: فاستخلفتَ عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين). رواه مسلم

رابعاً : إن منزلة الحافظ للقرآن عند آخر آية كان يحفظها.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال (يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها) رواه الترمذي .

ومعنى القراءة هنا: الحفظ.

خامساً : أنه يكون مع الملائكة رفيقاً لهم في منازلهم.

لحديث الباب (مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ).

سادساً : أنه يُلبس تاج الكرامة وحلة الكرامة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (يجيء القرآن يوم القيامة فيقول: يا رب حلِّه، فيلبس تاج الكرامة ثم يقول: يا رب زِدْه، فيلبس حلة الكرامة، ثم يقول: يا رب ارض عنه فيرضى عنه، فيقال له: اقرأ وارق وتزاد بكل آية حسنة) رواه الترمذي.

سابعاً : أنه يَشفع فيه القرآن عند ربّه.

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه ...).

٤-قوله (**مع السفرة ...**) .

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- وجه كونهم مع الملائكة: أنَّ حملةَ القرآن يُبلِّغون كلام الله إلى خلقه، فهم سُفراء بين رسل الله وبين خلقه، فهم معهم؛ أي: في مرتبتهم في هذه العبادة.

ويستفيد من هذا حملةُ القرآن: التحرُّزُ في التَّبليغ والتَّعليم، والاجتهاد في تحصيل الصِّدق، وإخلاص النيَّة لله؛ حتى تصح لهم المناسبة بينهم وبين الملائكة. (المفهم)

وقال المناوي -رحمه الله- معنى كونه رفيقًا لهم: أنه أُحلّ مقامهم، وأُنزل منازلهم الرفيعة، وأُسكن مقاماتهم العالية من جوار الحق تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) وقيل: معناه: كونه عاملًا بعملهم، بل أفضل، فقد جاء في بعض الطرق: «أن الملائكة لم يُعطوا فضيلة حفظ القرآن، وأنهم حريصون على استماعه من بني آدم» فأعظِم بها من صفةٍ شريفةٍ، وأي شيءٍ أعظمُ من كلام رب العالمين الذي منه بدأ وإليه يعود؟.

٥-أن الذي يقرأ ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران : أجر بالقراءة، وأجر بتتعته في تلاوته ومشقته .

قال القرطبيّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: إنما كان له أجران، من حيث التلاوة، ومن حيث المشقّة، ودرجات الماهر فوق ذلك كلّه؛ لأنه قد كان القرآن متعتعًا عليه، ثم تَرَقَّى عن ذلك إلى أن تشبّه بالملائكة .

وقال المظهري -رحمه الله- (له أجران) أجر القراءة، وأجر تحمُّل المشقة .

٦- فإن قيل: ذَكَرَ للمتعتع لِسانه أجرينِ، ولم يذكر للماهر أجرين، فلزم من هذا أن يكون المتعتعُ أفضلَ من الماهر.

قلنا: لا يلزم هذا؛ لأن رسول الله ﷺ ذكر لكل واحد فضيلة؛ ليكون تحريضًا له على القراءة، فذكر للمُتَعتع حصول أجرين، وذكر للماهر كونَه مع السَّفَرة، فكون الرجل مع السَّفَرة لا ينقص من حصول أجرين.

قال النوويّ : قال القاضي عياض وغيره من العلماء: ليس معناه أن الذي يتتعتع عليه له من الأجر أكثر من الماهر به، بل الماهر أفضل وأكثر أجرًا؛ لأنه مع السَّفَرَة، وله أجور كثيرة، ولم تُذكَر هذه المنزلة لغيره، وكيف يُلْحَق به من لم يَعْتَنِ بكتاب الله تعالى، وحفظه، وإتقانه، وكثرة تلاوته، وروايته كاعتنائه حتى مَهَرَ فيه؛ والله أعلم.

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- (له أجران) الأول للتّلاوة، والثاني للتّعب والمشقة؛ ولهذا قال النبي ﷺ لعائشة «أجرك على قدر نصبك» أي: على قدر تعبك...، لكن الأول أفضل منه؛ لأن الأول مرتبته عظيمة، وفرق بين إنسانٍ له مرتبة عالية، وإنسان دون ذلك، ولكن له أجرٌ، ونضرب مثلًا لهذا والثواب ليس له نظير، لكن لو أنَّ رجلًا له شرفٌ وسيادةٌ ومنزلةٌ عاليةٌ في الناس، لكن دراهمه قليلة، وآخر وضيعٌ بين الناس ليس له قيمةٌ، لكنَّ دراهمه كثيرة، الأول أفضل...، إذًا تالي القرآن ليس بخاسرٍ مهما كان، والله الموفق .

وقال ابن الجوزي -رحمه الله- ربما تخايل السَّامع في قوله: «له أجران» أنه يزيد على الماهر، وليس كذلك؛ لأن المضاعفة للماهر لا تُحصر؛ فإن الحسنة قد تضاعف إلى سبعمائة وأكثر، فإنما الأجر شيءٌ مقدَّرٌ، فالحسنة لها ثوابٌ معلومٌ، وفاعلها يُعطى ذلك الثواب مُضاعفًا إلى عشر مرات؛ ولهذا المقصِّرِ منه أجران.

فإن قيل: فهلّا جعل أجر هذا الذي يشقُّ عليه القرآن أكثر؛ لأن مشقته أعظم؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه لا يَمهرُ منه غالبًا إلا عن كثرة الدِّراسة، ولا يقع التَّتَعتُع غالبًا إلا عن قلَّتِها؛ فباجتهاد الحافظ حتى استقرّ في قلبه ارتفع أجره.

والثاني: أن يُفضَّل الحافظُ الفَهِمُ على البليد؛ لجوهرية خُصَّ بها لا تكسب، كما فُضِّل العربيُّ (أي: الفرس العربي) على الكَودَنِ (أي: الفرس الهجين) وذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء .

وقال القاضي عياض -رحمه الله- ليس فيه دليل على أنه أعظم أجرًا من الماهر، ولا يصحُّ هذا إذا كان عالمًا به؛ لأن من هو مع السَّفَرة فمنزلته عظيمة، وله أجورٌ كثيرة، ولم تحصل هذه المنزلة لغيره ممن لم يَمهر مهارتَهُ، ولا يُسوَّى أجرُ من علم بأجرٍ من لم يعلم، فكيف يفضُلُه؟ وقد يحتج بهذا من يقول بفضل الملائكة على بني آدم.

٧-تشجيع من يجد مشقة في القراءة؛ فالمؤمن الذي يقرأ القرآن بصعوبة ويتلعثم فيه لا يُحرم الأجر، بل له أجران: أجر التلاوة وأجر المشقة التي يتحملها.

٨-الحث على الاستمرار في تعلم القرآن وعدم ترك قراءته بسبب صعوبتها أو ضعف القدرة على القراءة.

٩-أن المشقة في العبادة إذا كانت ناشئة عن بذل الجهد والطاعة يؤجر عليها المسلم.

١٠-بيان تفاوت الناس في فضل تلاوة القرآن؛ فلكلٍّ منهم فضل بحسب حاله واجتهاده.

١١-فضل تعلم القرآن وإتقانه، فالمؤمن ينبغي أن يجمع بين كثرة التلاوة وتحسين القراءة والتدبر والعمل.

١٢-القرآن سبب لرفعة منزلة صاحبه؛ فالماهر فيه له منزلة عظيمة مع الملائكة الكرام البررة.

١٣-فضل ملازمة القرآن؛ فالحديث يشجع المسلم على أن يجعل القرآن جزءًا ثابتًا من حياته، لا أن يقرأه في أوقات متفرقة فقط.

١٤-الإتقان ثمرة الممارسة والاستمرار؛ فالمهارة في قراءة القرآن لا تحصل غالبًا من أول مرة، وإنما تحتاج إلى التعلم والتكرار والصبر.

١٥-قال ابن حجر -رحمه الله- قد تمسك به مَن قال: إنَّ جميع الملائكة رُسل الله، وللعلماء في ذلك قولان، الصحيح: أنَّ فيهم الرسل وغير الرسل، وقد ثبت أنَّ منهم الساجد فلا يقوم، والراكع فلا يعتدل الحديث، واحتج الأول بقوله تعالى (جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا) وأجيب بقول الله تعالى (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) .

عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ (إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا) » قَالَ وَسَمَّانِي لَكَ قَالَ « نَعَمْ » قَالَ فَبَكَى) .

[خ : ٣٨٠٩] .

==========

(**فَبَكَى أُبَيٌّ**) إما فرَحًا وسُرُورًا بذلك، وإما خشوعًا وخوفًا من التقصير في شُكر تلك النعمة، قاله في "الفتح ".

وقال النوويّ -رحمه الله-: أما بكاؤه فبكاء سرور، واستصغار لنفسه عن تأهيله لهذه النعمة، وإعطائه هذه المنزلة.

وقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: تَعَجَّبَ أُبَيٌّ مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّ تَسْمِيَةَ اللَّهِ لَهُ وَنَصَّهُ عَلَيْهِ لِيَقْرَأَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ فَلِذَلِكَ بَكَى إِمَّا فَرَحًا وَإِمَّا خُشُوعًا. (الفتح)

١ - الحديث دليل على جواز البكاء فرحاً وسروراً عند حصول النعمة وخشية من التقصير في شكر المنعم سبحانه.

٢ - اسْتِحْبَاب قِرَاءَة الْقُرْآن عَلَى الْحُذَّاق فِيهِ وَأَهْل الْعِلْم بِهِ وَالْفَضْل، وَإِنْ كَانَ الْقَارِئ أَفْضَل مِنْ الْمَقْرُوء عَلَيْهِ.

٣ - الْمَنْقَبَة الشَّرِيفَة لِأُبَيٍّ بِقِرَاءَةِ النَّبِيّ ﷺ عَلَيْهِ، وَلَا يُعْلَم أَحَد مِنْ النَّاس شَارَكَهُ فِي هَذَا.

وهو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، يكنى أبا المنذر، شهد العقبة مع السبعين، وشهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، ومن الذين حفظوا القرآن كله على عهد النبي ﷺ وهو أحد الذين كانوا يفتون على عهد النبي ﷺ.

وأبي بن كعب ﷺ من الأربعة الذين أمر رسول الله ﷺ أن يؤخذ منهم القرآن:

عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت النبي ﷺ يقول (خذوا القرآن من أربعة من عبدالله بن مسعود فبدأ به وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب) .

وكانَ ﷺ رَأْساً في العِلمِ والعَمَلِ، عَالِمًا بأَسبَابِ النُّزولِ والنَّاسخِ والمنسُوخِ، وأَحدَ فُقهاءِ الصَّحابةِ وقُرَّائِهِم، ومِن أَكثرِ الصَّحابةِ تَفسِيراً لكتابِ اللهِ تعَالى، فقَد خَصَّهُ الرَّسولُ ﷺ بالدُّعاءِ، حِينَ سَأَلَهُ ذَاتَ يَومٍ، فقالَ ﷺ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ " قَالَ: قُلْتُ (اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم) قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ) وفِيهِ مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِأُبَيّ، وَدَلِيل عَلَى كَثْرَة عِلْمه.

٤ – مَنْقَبَة أُخْرَى لَهُ بِذِكْرِ اللَّه تَعَالَى لَهُ، وَنَصّه عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَة الرَّفِيعَة.

٥ – الْبُكَاء لِلسُّرُورِ وَالْفَرَح مِمَّا يُبَشَّر الْإِنْسَان بِهِ وَيُعْطَاهُ مِنْ مَعَالِي الْأُمُور.

٦ – وَاخْتَلَفُوا فِي الْحِكْمَة فِي قِرَاءَته ﷺ عَلَى أُبَيّ:

وَالْمُخْتَار أَنَّ سَبَبهَا أَنْ تَسْتَنّ الْأُمَّةُ بِذَلِكَ فِي الْقِرَاءَة عَلَى أَهْل الْإِتْقَان وَالْفَضْل وَيَتَعَلَّمُوا آدَاب الْقِرَاءَة وَلَا يَأْنَف أَحَد مِنْ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: لِلتَّنْبِيهِ عَلَى جَلَالَة أُبَيّ وَأَهْلِيَّتِهِ لِأَخْذِ الْقُرْآن عَنْهُ، وَكَانَ يَعُدّهُ ﷺ رَأْسًا وَأَمَامًا فِي إِقْرَاء الْقُرْآن، وَهُوَ أَجَلّ نَاشِرَته أَوْ مِنْ أَجَلّهمْ. وَيَتَضَمَّن مُعْجِزَة لِرَسُولِ اللَّه ﷺ .

قال العيني : وَالْحِكمَة فِي أمره بِالْقِرَاءَةِ عَلَيْهِ هِيَ أَنه يتَعَلَّق أبي أَلْفَاظه وَكَيْفِيَّة أَدَائِهِ ومواضع الْوُقُوف، فَكَانَت الْقِرَاءَة عَلَيْهِ لتعليمه لَا ليتعلم مِنْهُ، وَأَنه يسن عرض الْقُرْآن على حفاظه المجودين لأدائه وَإِن كَانُوا دونه فِي النّسَب وَالدّين والفضيلة وَنَحْو ذَلِك، أَو أَن يُنَبه النَّاس على فَضِيلَة أبي ويحثهم على الْأَخْذ عَنهُ وتقديمه فِي ذَلِك، وَكَانَ كَذَلِك، وَصَارَ بعد النَّبِي ﷺ، رَأْسا وإمامًا مَشْهُورا فِيهِ.

٧ – وَأَمَّا تَخْصِيص هَذِهِ السُّورَة فَلِأَنَّهَا وَجِيزَة جَامِعَة لِقَوَاعِد كَثِيرَة مِنْ أُصُول الدِّين وَفُرُوعه وَمُهِمَّاته وَالْإِخْلَاص وَتَطْهِير الْقُلُوب، وَكَانَ الْوَقْت يَقْتَضِي الِاخْتِصَار. (ذكر هذه الفوائد النووي رحمه الله).

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: خَصَّ هَذِهِ السُّورَةَ بِالذِّكْرِ لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ وَالْإِخْلَاصِ وَالصُّحُفِ وَالْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَذِكْرِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْمَعَادِ وَبَيَان أهل الْجَنَّة وَالنَّار مَعَ وجازتها.

٨–قول أبيّ : وَسَمَّانِي لَكَ :

لم يكن استفهام أُبيّ ﷺ شكاً، وإنما سأل استيثاقاً واستعذاباً للخبر وتلذذاً بسماعه؛ ليعلم هل نصّ الله سبحانه عليه باسمه تحديداً، أم أُمِر النبي ﷺ بالقراءة على رجلٍ من أصحابه فاختاره النبي ﷺ؟ فأخبره النبي ﷺ بأن الله تعالى نصّ على اسمه بعينه : اللهُ سَمَّاكَ لِي ، وفي رواية : وقد ذُكِرتُ عند رب العالمين؟ قال: نعم .

٩–مشروعية قراءة الفاضل على المفضول: قراءة المعلم على التلميذ لتعليمه وضبط أدائه وإجازته، وتواضع أهل العلم في تبليغ رسالة الله .

١٠–الاستبشار بالذكر في الملأ الأعلى: وفي رواية للبخاري سأل أُبيّ (وَذُكِرْتُ عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ) فذرفت عيناه .

١١– فرح الاستجابة لفضل الله: رُوي عن عبد الرحمن بن أبزى أنه قال لأُبيّ: (يا أبا المنذر، أفَرِحْتَ بذلك؟ قال: وما يمنعني والله تعالى يقول: قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) .

١٢–محبة النبي ﷺ لأصحابه وتكريمهم، ومن ذلك إظهار فضائلهم ومناقبهم.

١٣–أن معرفة فضل الإنسان قد تكون سببًا لزيادة شكره وخشوعه، لا سببًا للغرور.

١٤–أن التفاضل بين الناس يكون بالفضل والطاعة والعلم، لا بالنسب أو المال أو الجاه.

١٥-جواز إظهار فضائل أهل العلم والصلاح إذا ترتب على ذلك مصلحة، كالحث على الاقتداء بهم.

١٦-التواضع من علامات الإيمان؛ فأُبي ﷺ لما علم أن الله ذكره شعر بعظيم الموقف فبكى.

١٧-خشية الله تعالى والتأثر بنعمه من صفات الصالحين.

١٨-أن العلم النافع يزيد صاحبه خشوعًا؛ فكلما عرف العبد فضل الله عليه ازداد تواضعًا وخشية.

١٩-أن المنزلة عند الله ليست مدعاة للعُجب؛ فأُبيّ ﷺ، مع عظيم فضله، لم يتكبر وإنما بكى.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ » قَالَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ قَالَ « إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا) رَفَعْتُ رَأْسِي أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ) .

[خ : ٥٠٤٩] .

==========

(**عَنْ عَبْدِ اللَّهِ**) ابن مسعود .

(**قلت: يَا رسول اللهِ، أقرأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟!**) أي: والحال أن القرآن أنزله الله عليك، فأنت أحقّ بقراءته من غيرك؛ إذ جريان الحكمة على لسان الحكيم أحلى، وكلام المحبوب على لسان الحبيب أولى.

(**إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيرِي**) وفي رواية (إِنِّي أَشْتَهِي) أي: أحب، قال القرطبي: أي: استطيب ذلك.

(**فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سورةَ النِّسَاءِ**) أي: قرأت عليه ﷺ سورة النساء من أولها، كما يأتي في الرواية التالية بلفظ: "فقرأ عليه من أول سورة النساء.

(**وَجِئْنَا بِكَ**) يا محمد.

(**عَلَى هؤُلاءِ**) أمتك.

(**شَهِيدًا**) أي: شاهدًا لمن آمن بالإيمان، وعلى من كفر بالكفر، وعلى من نافق بالنفاق، وقيل: أي: تشهد على صدق هؤلاء الشهداء؛ لحصول علمك بعقائدهم؛ لدلالة كتابك وشرعك على قواعدهم.

(**فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ**) وفي رواية ((فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفَان) .

١- قوله (**فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفَان**).

قال ابن بطال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: إنما بَكَى ﷺ عند تلاوته هذه الآية؛ لأنه مَثَّل لنفسه أهوال يوم القيامة، وشِدَّة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بالتصديق، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمرٌ يَحِقّ له طول البكاء.

وقال الحافظ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: الذي يظهر أنه بَكَى رحمةً لأمته؛ لأنه عَلِمَ أنه لا بُدّ أن يشهد عليهم بعَمَلهم، وعَمَلُهُم قد لا يكون مُستقيمًا، فقد يفضي إلى تعذيبهم، والله أعلم. انتهى.

٢ - الحديث دليل على استحباب الاستماع للقراءة والإصغاء لها والبكاء عندها.

٣ - فضل استماع القرآن.

أولاً: استماع القرآن سبب لرحمة الله.

قال تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون).

والفرق بين الاستماع والإنصات: أن الإنصات في الظاهر، بترك التَّحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه. وأما الاستماع له، فهو أن يُلقي سمعَه، ويُحضر قلبَه، ويتدبر ما يسمع.

قال السعدي : ... فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدداً، وهدىً متزايداً، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تُلِيَ عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير. (التفسير)

قال الليث بن سعد: يقال: ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن .

ثانياً: استماع القرآن سبب لهداية الإنس والجن.

قال تعالى (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا).

ثالثاً: استماع القرآن سبب لخشوع القلب وبكاء العين.

كما في حديث الباب.

وهذه هي سُنَّة الأنبياء وطريقتهم جميعًا عليهم السلام عند استماعهم لكلام الله تعالى وآياته تفيض أعينهم بالدموع، وتخضع وتخشع قلوبهم وتتأثر من كلام الرحمن عزّ وجل.

قال تعالى (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا).

قال القرطبي رحمه الله: هذه مبالغةٌ في صفتهم ومَدْحٌ لهم وَحُقَّ لكل من تَوَسَّمَ بالعلم وحَصَّل منه شيئًا أن يجري إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويَذِل. وفي مسند الدِّارمي أبي محمد عن التَّيْمِيّ قال: مَنْ أُوتِي من العلم ما لم يُبْكِه لَخَلِيقٌ ألاَّ يكون أوتي علمًا [ينفعه] لأن الله تعالى نَعَتَ العلماءَ، ثم تلا هذه الآية.

رابعاً: استماع القرآن سبب لزيادة الإيمان.

قال الله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً).

ووجه ذلك: أنهم يُلقون له السَّمع، ويُحضرون قلوبَهم لتدبره فعند ذلك، يزيد إيمانهم.

فسماع القرآن العظيم : حادٍ يَحدُو القُلوبَ، إلى جوار عَلاَّم الغَيوبِ، وسائِقٌ يَسوقُ الأرواحَ إلى ديارِ الأَفراحِ، ومحرِّكٌ يُثيرُ ساكنَ العَزَمَاتِ، إلى أعلى المقاماتِ وأَرفَعِ الدَّرَجاتِ، ومُنَادٍ يُنَادي للإيمانِ، وَدَلِيلٌ يَسيرُ بالرَّكَبِ في طريقِ الجِنَانِ، وداعٍ يَدعُو القُلُوبَ بالمسَاءِ والصَّباحِ، مِن قِبَل فَالِقِ الإصباحِ: حَيَّ عَلى الفلاحِ، حَيَّ على الفَلاحِ.

خامساً : فضل من استمع إلى آية.

قال ابن عباس: من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نوراً يوم القيامة. رواه عبد الرزاق.

سادساً : الاقتداء بالنبي ﷺ والصحابة .

كما في حديث الباب .

وعن أبي مدينة الدارمي، وكانت له صحبة قال: كان الرَّجُلانِ من أصحابِ النبيِّ ﷺ إذا التَقَيا لَمْ يَفْتَرِقَا حتى يقرأَ أحدُهُما على الآخَرِ : (و العَصْرِ إِنَّ الإنسانَ لَفي خُسْرٍ)، ثُمَّ يُسَلِّمَ أحدُهُما على الآخَرِ . رواه الطبراني

وعن أبي نضرة –رحمه الله– قال (كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا تذاكروا العلم، وقرءوا سورة) .

سابعاً : عون عظيم على التدبر والتأثر .

فالمستمع يكون أفرغ ذهناً وأقل انشغالاً بأحكام التلاوة ومخارج الحروف، مما يتيح له تفهماً أعمق وتأثراً أبلغ .

قال ابن بطال : المستمع أقوى على التدبر، ونفسه أخلى وأنشط من نفس القارئ؛ لاشتغاله بالقراءة وأحكامها .

٤-أن النبيَّ ﷺ يحبُّ استماع القرآن العظيم؛ وتطيب نفسه حين استماعه له، ويظهر أثر الاستماع عليه بالتَّأثُّر والخشوع والبكاء. ولا عجب من ذلك فهو أرقُّ النَّاس قلباً، وأسرعهم دمعة، وأعظمهم تأثُّراً بالقرآن الكريم، فقد كان أعرفَ الخلق بالله، وأشدَّهم له خشية. ومن هذه المواقف المباركة:

أ-حديث الباب (قالَ: إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي) .

ب-قال النبيُّ ﷺ لأبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه (لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِراءَتِكَ البَارِحَةَ! لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْماراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ) .

ج-عن عائشةَ قالت (أبطأتُ على عهدِ رسولِ الله ﷺ ليلةً بعد العِشَاءِ. ثُمَّ جِئْت فقال: «أيْنَ كُنْتِ؟». قلتُ: كنتُ أستَمِعُ قراءةَ رجلٍ مِنْ أصحابِك لَمْ أسمَعْ مِثلَ قراءتِه وَصَوتِهِ مِنْ أحدٍ. قالتْ: فَقَامَ وقُمْتُ معه حتَّى اسْتَمَعَ له. ثمَّ الْتَفَتَ إليَّ فقال: «هَذَا سَالِمٌ، مَوْلَى أبي حُذَيْفَةَ. الحَمْدُ لله الَّذي جَعَلَ في أُمَّتِي مِثْلَ هَذَا) .

د-ولا أدلَّ على محبَّة النبيِّ ﷺلاستماع القرآن الكريم من قول فاطمة رضي الله عنها: أَسَرَّ إِلَيَّ النبيُّ ﷺ: أَنَّ جِبْرِيلَ كانَ يُعَارِضُنِي بِالقُرآنِ كُلَّ سَنَةٍ، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي العَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلاَ أُرَاهُ إِلاَّ حَضَرَ أَجَلِي .

قال ابن حجر رحمه الله: والمعارضة: مفاعلة من الجانبين، كأنَّ كلاً منهما كان تارة يقرأ والآخر يستمع .

٥-الحديث دليل على استحباب طلب القراءة من الغير ليستمع له، وهو أبلغ من التفهم والتدبر من قراءته بنفسه.

٦ - الحديث دليل على تواضع أهل العلم والفضل ولو مع أتباعهم.

٧ - الحديث دليل على خوف النبي ﷺ ورقته وعبوديته لربه.

٨ - الحديث دليل على استحباب البكاء عند قراءة القرآن.

قال ابن القيم: وكان ﷺ بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفاً على أمته وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال، مصاحب للخوف والخشية.

استحباب طلب القراءة من غيره ليستمع له، وهو أبلغ في التفهُّم والتدبُّر من قراءته بنفسه.

٩ - تواضُع أهل العلم والفضل ولو مع أتباعهم.

١٠ - الاستماع إلى قارئ القرآن، ولو كان المستمع من حُفَّاظه؛ اقتداء بالنبي ﷺ واتباعًا لسُنته.

١١-فضيلة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ فقد اختاره النبي ﷺ ليسمع منه القرآن، وهذا يدل على جودة قراءته وحسن أدائه.

١٢-استحباب اختيار الآيات المؤثرة في المواعظ والتذكير؛ لأن النبي ﷺ تأثر بآية عظيمة تذكّر بأهوال يوم القيامة ومسؤولية الشهادة على الناس.

١٣-أن التأثر بالقرآن ليس خاصًا بالقارئ؛ فقد يتأثر المستمع أكثر من القارئ، ولذلك ينبغي للقارئ والمستمع معًا أن يستحضراً معاني الآيات.

١٤-أن معرفة المعنى من أعظم أسباب التأثر بالقرآن؛ فالآية التي بكى عندها النبي ﷺ تتضمن مشهدًا عظيمًا من مشاهد يوم القيامة.

١٥-استحضار يوم القيامة يرقق القلب؛ فالآية ذكّرت النبي ﷺ بموقف الشهادة على الأمم، فظهر أثر ذلك في بكائه.

١٦-مشروعية التأثر بآيات الوعد والوعيد وأخبار الآخرة، وليس المقصود من التلاوة مجرد ختم الصفحات.

١٧-أن البكاء قد يكون نتيجة التفكر في عظمة المسؤولية؛ فالآية تتحدث عن شهادة النبي ﷺ على أمته، وهو أمر عظيم الشأن.

١٨-أن خشوع القلب يظهر على الجوارح؛ فقد ظهرت ثمرة الخشوع في دموع النبي ﷺ.

١٩-أن الدموع الصادقة من آثار خشية الله، وليست علامة ضعف، بل قد تكون من أكمل صور التأثر بكلام الله.

٢٠-استحضار مراقبة الله وموقف الحساب من أعظم أسباب صلاح القلب؛ فالآيات المتعلقة بالقيامة توقظ الغافل وتدفعه إلى الاستعداد.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلاَثَ خَلِفَاتٍ عِظَــامٍ سِمَانٍ ». قُلْنَا نَعَمْ . قَالَ : فَثَلاَثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَــلاَتِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثِ خَلِفَاتٍ عِظَــامٍ سِمَانٍ) .

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ (خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ « أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلاَ قَطْعِ رَحِمٍ ». فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ نُحِبُّ ذَلِكَ. قَالَ « أَفَلاَ يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ وَثَلاَثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثٍ وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ) .

==========

(**أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيهِ**) أي : في طريقه .

قال الملا علي القاري -رحمه الله- (أن يجد فيه) أي: في رجوعه إليهم، وقيل: أي: في طريقه .

(**خَلِفَاتٍ**) الخَلِفَة: هي الحامل منَ النُّوق، والجمعُ خَلِفات.

قال ابن منظور -رحمه الله- الخَلِفَة: بفتح الخاء، وكسر اللام: الحامل من النُّوق، وتُجمعُ على خَلِفاتٍ وخلائِفَ، وقد خَلِفَت: إذا حَمَلت، وأَخْلَفَت إذا حالَ .

وقال القاضي عياض -رحمه الله- الخَلِفات: النوق الحوامل إلى أن يمضي لها نصف أمدها، ثم هي عُشَرَاء.

(**عِظَــامٍ سِمَانٍ**) (عظام) في الكمية والماهية (سِمان) في الكيفية والحالية .

قُلْنَا نَعَمْ . قَالَ : فَثَلاَثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَــلاَتِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثِ خَلِفَاتٍ عِظَــامٍ سِمَانٍ) .

(**وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ**) بضم الصاد وتشديد الفاء: ظُلَّةٌ في مؤخر مسجد النبي ﷺ يأوي إليها المساكين .

قال ابن حجر الهيتمي -رحمه الله- (في الصُّفَّة) وكانت في مؤخر المسجد، معدة لفقراء أصحابه الغير المتأهلين (الذين ليس لهم أهل)، وكانوا يكثرون تارة، حتى يبلغوا نحو المائتين، ويقِلُّون أخرى؛ لإرسالهم في الجهاد، وتعليم القرآن .

(**فَقَالَ : أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ**) من الغُدُوِّ، وهو السير أول النهار، وقد يُراد به: مطلق السير، كما هنا .

(**إِلَى بُطْحَانَ**) اسم وادٍ بالمدينة .

(**أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ**) اسم وادٍ من أودية المدينة، وهو الذي ورد فيه أنه «وادٍ مبارك»، والعرب تقول لكل ما شقه ماء السيل في الأرض فأنهره ووسعه: عقيق؛ وسمي العقيق لأنه عق بالحرة، وهما عقيقان: الأكبر والأصغر، فالأصغر فيه بئر رومة التي اشتراها عثمان، والأكبر بئر عروة.

(**فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ**) أي: طويلتا السَّنام ، قال ابن منظور –رحمه الله– ناقة كوماء: عظيمة السَّنام طويلته، والكوم: عظم في السنام.

قال القاضي عياض –رحمه الله– (ناقتين كوماوين) الكوماء من الإبل: العظيمة السَّنام، كأنهم –والله أعلم– شبَّهوا سنامها لعِظَمه بالكَوم وهو الموضع المشرف .

(**فِي غَيْرِ إِثْمٍ**) أي: في غير ما يوجب إثمًا كغصب وسَرقة .

(**وَلاَ قَطْعِ رَحِمٍ**) ولا إيذاء قريب .

(**قَالَ : أَفَلاَ يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ ...**) قال ابن حبان –رحمه الله– هذا الخبر أُضمر فيه كلمة وهي: (لو تصدق بها) يريد بقوله (فيتعلم آيتين من كتاب الله خير من ناقتين وثلاث) لو تصدق بها؛ لأن فضل تعلم آيتين من كتاب الله أكبر من فضل ناقتين، وثلاث وعدادهن من الإبل لو تصدق بها؛ إذ محال أن يُشبّه مَن تعلّم آيتين من كتاب الله في الأجر بمن نال بعض حطام الدّنيا، فصح بما وصفت صحة ما ذكرت.

١–بيان فضل قراءة القرآن في الصلاة.

فالنبي ﷺ أراد ترغيبهم في الباقيات وتزهيدهم عن الفانيات، فذكره هذا على سبيل التمثيل والتقريب إلى فهم العليل، وإلا فجميع الدنيا أحقر من أن يقابل بمعرفة آية من كتاب الله تعالى أو بثوابها من الدرجات العلى .

قال القرطبي : ومقصود الحديث: الترغيب في تعلم القرآن وتعليمه، وخاطبهم على ما تعارفوه، فإنهم أهل إبل، وإلَّا فأقلّ جزء من ثواب القرآن وتعليمه خير من الدنيا وما فيها.

٢–خص الإبل الخلفات ؟

قال السندي –رحمه الله– (ثلاث خَلِفَات) وهي من أعزّ أموال العرب.

وقال الشيخ موسى شاهين –رحمه الله– والخَلِفَات: أحب الإبل إلى أهلها، فإذا ما كانت عظيمة اللحم مليئة، كثيرة الشحم سمينة، كانت أشد حبًّا.

وقال محمد الأُبي –رحمه الله– إبقاء الحكم مقرونًا بالمثال أرسخ، وخَصَّ الخَلِفَات؛ لأنهن محبوبات عند العرب.

وقال التوربشتي –رحمه الله– وإنما ضرب المثل بها لأنها كانت من أحب الأموال إليهم، وأنفس المتاجر لديهم .

٣–الأعمال الصالحة خير وأبقى من متاع الدنيا الفاني.

فالأعمال الصالحة هي خير ما يقدمه الإنسان لنفسه؟ لماذا؟ لأنها هي التي تبقى، أما الدنيا وزينتها فزائلة.

كما قال تعالى (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً).

وقد جاءت نصوص كثيرة تبين ذلك:

قال رسول الله ﷺ (يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله). متفق عليه

وعن عبدِ الله بن الشِّخِّيرِ – بكسر الشينِ والخاء المعجمتين– ﷺ، أنه قَالَ (أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مالي، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟) رواه مسلم.

وعن ابن مسعود. قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ (أيُّكُم مَالُ وَارِثِهِ أحبُّ إِلَيْهِ مِنْ ... مَالِهِ؟) قالوا: يَا رسول اللهِ، مَا مِنَّا أحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: فإنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أخَّرَ) رواه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها (أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النبيُّ ﷺ (مَا بَقِيَ مِنْهَا؟) قالت: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُها. قَالَ: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرُ كَتِفِهَا) رواه الترمذي.

ومعناه: تَصَدَّقُوا بِهَا إِلاَّ كَتِفَها. فَقَالَ: بَقِيَتْ لَنَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ كَتِفَهَا.

وقال الحسن البصري: يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بَذَج فيقول الله، عَزَّ وجل[له]؛ أين ما جمعت؟ فيقول يا رب، جمعته وتركته أوفر ما كان، فيقول: فأين ما قدمت لنفسك؟ فلا يراه قدم شيئا، وتلا هذه الآية (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ). بذج: هو ولد الضأن أي يؤتي به وهو في غاية الضعف والذل.

والناس رأوا بأم أعينهم من يملك الملايين، ومن يملك أموالاً لا يحصيها إلا رب العالمين، ومع ذلك ماتوا وراحوا.

مر سليمان بحراث –وكان مع سليمان جنوده وموكبه العظيم– فقال الحراث: لقد أوتي سليمان ملكاً عظيماً؟ فنزل سليمان إليه وقال: تسبيحة واحدة خير من ملك سليمان، لأن ملك سليمان يفنى والتسبيحة تبقى.

قال القرطبي: كان يقال: لا تعقد قلبك مع المال لأنه شَيْءٌ ذاهب، ولا مع النساء لأنها اليوم معك وغداً مع غيرك، ولا مع السلطان لأنه اليوم لك وغداً لغيرك.

٤– **قال أبو العباس القرطبي** –رحمه الله– خاطبهم على ما تعارفوه؛ فإنَّهم أهل إبل، وإلا فأقل جزء من ثواب القرآن وتعليمه خير من الدنيا وما فيها.

٥–هذا الفضل ليس مُقيَّدًا بقراءة ثلاث آيات فقط؛ فكلما زاد المصلي من قراءة الآيات في صلاته كان ثوابها خيرًا له من عددهن من الخَلِفات .

٦–قال التوربشتي –رحمه الله– وإنما خُصّ الموضعين بطحان والعقيق بالذكر؛ لأنهما كانا من أقرب الأودية التي كانوا يقيمون بها أسواق الإبل .

٧– الذم والتحذير من تحصيل شيء من الدنيا بتضييع حق من حقوق الله، واكتساب ذنب أو معصية، أو شغله عن صلة رحم.

٨–وفي الحديث من آداب المتعلم: أن يذهب إلى العلم أول النهار.

٩– أن المتعلم لكتاب الله تعالى يحرص على حفظ آيات معدودة يكملها ولا يقف في قراءته على بعض آية تنتهي قراءته إليها، ويبتدئ ثاني يوم بعضها الآخر؛ بل يقف في قراءته على رؤوس الآي، واستحب بعض الأئمة التعقيب بكلمة من أول الآية التي بعدها.

١٠–خصّ النبي ﷺ القراءة في الصلاة بقوله: فِي صَلاَتِهِ لبيان الأفضلية وكمال الثواب؛ إذ إن تلاوة القرآن داخل الصلاة أعظم أجراً ومضاعفةً من تلاوته خارجها لما يقترن بها من الخشوع والقيام والركوع والسجود .

عن أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ » قَالَ مُعَاوِيَةُ بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ السَّحَرَةُ) .

عن النَّوَّاس بْن سَمْعَان . قال : قال ﷺ (يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ » وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاَثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا) .

==========

(**وَضَرَبَ لَهُمَا**) أي : للسورتين .

(**رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاَثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ**) أي : الأمثال الثلاثة .

(**بَعْدُ**) أي: بعد سماعي منه، ولا ذُهِلتُ عنها حتى الآن.

(**قَالَ : كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ**) الغمام: السحاب المُلتَفّ، وهي: الغياية إذا كانت قريبًا من الرأس، والظُّلَّةُ أيضًا.

(**أَوْ ظُلَّتَانِ**) الظُّلة: ما يظلك، وقيل: هي أول سحابة تظلك، ونرى –والله أعلم– أنه إنما وصفهما بالسواد لكثافتهما، وارتكام البعض منهما على بعض؛ وذلك أجدى ما يكون من الظِّلال في الأمر المطلوب عنها.

قال ابن الجوزي –رحمه الله– الظُّلَّة: ما يَسترُك فوقَك .

(**سَوْدَاوَانِ**) تثنية سوداء، وُصِفتا بالسواد لكثافتهما، وتراكم بعضهما على بعض؛ وذلك أنفع من يكون من الظِّلال.

(**بَيْنَهُمَا شَرْقٌ**) **قال القاضي عياض** –رحمه الله– (...بينهما شَرْق) قيل: معناه: ضياء ونور، رويناه بسكون الراء وفتحها.

وقال أبو العباس القرطبي –رحمه الله– متعقبًا (بينهما شَرْق) قال القاضي : رويناه بكسر الراء وفتحها، قيل: وهو الضياء والنور، قلتُ: والأشبه: أن الشرْق بالسكون، بمعنى المشرِق، يعني: أن بين تلك الظُّلتين السوداوين مشارقُ أنوارٍ، وبالفتح: هو الضياء نفسه، وإنما نبّه في هذا الحديث على هذا الضياء؛ لأنه لما قال: «سوداوان» قد يتوهم أنهما مظلِمتان، فنفى ذلك بقوله: «بينهما شَرْق» أي: مشارق أنوار، أو أنوار، حسب ما قررناه، ويعني بكونهما سوداوين: أي من كثافتهما التي بسببهما حالتا بين مَن تحتهما وبين حرارة الشمس وشدة اللهب، والله أعلم.

(**أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ**) **قال النووي** –رحمه الله– والحزقان: بكسر الحاء المهملة، وإسكان الزاي، ومعناهما –أي: فِرْقَان وحِزْقَان– واحد، وهما قطيعان وجماعتان، يقال في الواحد: فِرْق وحِزْق وحزيقة، أي: جماعة. .

(**مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ**) طيرٌ صوافٌّ: يصْفُفْنَ أجنحتهن في الهواء، ومنه قوله سبحانه (وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ) .

قال ابن الجوزي –رحمه الله– والصَّوافُّ: التي قد بَسَطت أجنحتها في الطيران .

(**تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا**) **قال الشوكاني** –رحمه الله– قوله: «تحاجَّان عن أصحابهما» أي: يُقيمان الحُجَّة له، ويجادلان عنه، وصاحبهما هو: المستكثر من قراءتهما، وظاهر الحديث أنهما يتجَسَّمان حتى يكونا كأحد هذه الثلاثة التي شبَّهها بها ﷺ، ثم يقدِّرهما الله –سبحانه وتعالى– على النطق بالحُجَّة؛ وذلك غير مُسْتَبعد مِن قدرة القادر القوي الذي يقول للشيء: كُنْ فيكون.

١–قوله (**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ**) .

فيه فضل تلاوة القرآن الكريم وحث على قراءته دائماً وأبداً .

وقد وصفه الله بصفات عظيمة:

كقوله تعالى (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَم).

وقوله (وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِين).

وقوله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا).

وقال تعالى (... وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا).

قال الرازي: والنور المبين هو القرآن، وسماه نوراً لأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب.

وقال القرطبي: النور المنزل هو القرآن؛ عن الحسن؛ وسماه نوراً لأن به تتبين الأحكام ويهتدى به من الضلالة، فهو نور مبين، أي واضح بَيّن.

وقال الخازن: وإنما سماه نوراً لأن به تتبين الأحكام كما تتبين الأشياء بالنور بعد الظلام ولأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب فسماه نوراً لهذا المعنى.

وقال الشنقيطي: الْمُرَادُ بِهَذَا النُّورِ الْمُبِينِ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ; لِأَنَّهُ يُزِيلُ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالشَّكِّ كَمَا يُزِيلُ النُّورُ الْحِسِّيُّ ظُلْمَةَ اللَّيْلِ.

وقال ابن الجوزي: وإنما سماه نوراً، لأن الأحكام تبين به بيان الأشياء بالنور.

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِين).

الأجر العظيم على تلاوة القرآن الكريم.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ . لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ).

من أسباب الشفاعة.

لحديث الباب (اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِه) .

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (الصِّيامُ والقرآنُ يشفعان للعبدِ يومَ القيامة) رواه أحمد.

خير الناس.

عن عثمان بن عفان قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ) رواه البخاري.

وأخبر النبي ﷺ أن سورة البقرة وآل عمران تظللان صاحبهما يوم القيامة.

كما في حديث الباب (يُؤْتَى يَوْمَ القِيَامَةِ بِالقُرْآنِ وَأَهْلِهِ الذينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ في الدُّنْيَا، تَقْدُمُه سورَةُ البَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا) .

سبب لنزول السكينة.

عن البراءِ بن عازِبٍ رضي اللهُ عنهما، قَالَ (كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ، وَعِنْدَهُ فَرَسٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ فَجَعَلَتْ تَدْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُه يَنْفِرُ مِنْهَا، فَلَمَّا أصْبَحَ أتَى النَّبيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ لِلقُرْآنِ». متفقٌ عَلَيْهِ.

بيّن النبي ﷺ أن قراءة كل حرف من كتاب الله بعشر حسنات.

وعن ابن مسعودٍ . قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ (مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أمْثَالِهَا، لاَ أقول: ألم حَرفٌ، وَلكِنْ: أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلاَمٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ) رواه الترمذي.

تلاوة القرآن كرامة للقارئ.

عن أَبي موسى الأشعري قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ ...).

والأترجة: هو ثمر جامع لطيب الطعم والرائحة، وحُسن اللون، ومنافعه كثيرة.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قَالَ رسول الله ﷺ (الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ) .

سبب للرفعة.

وعن عمر بن الخطاب ﷺ: أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ (إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخرِينَ) رواه مسلم.

وعن عبد اللهِ بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قَالَ (يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آية تَقْرَؤُهَا) رواه أَبُو داود والترمذي.

قال أبو سليمان الخطابي: جاء في الأثر أن عدد آي القرآن على قدر درج الجنة، فمن استوفى قراءة جميع آي القرآن، استولى على أقصى درج الجنة.

صاحب القرآن يغبط.

وعن ابن عمر رضي اللهُ عنهما، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ القُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاء اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَار) متفقٌ عَلَيْه.

قال خباب بن الأرت ﷺ: تقرب إلى الله ما استطعت، فإنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه.

قال الحسن البصري: فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على عباده.

قيل لنافع: ما كان يصنع ابن عمر في منزله؟ قال: لا تطيقونه: الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما.

٢-قوله (**شفيعاً لأصحابه**) ؟

أي : فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا ، أي: مشفَّعًا (لأصحابه) أي: القائمين بآدابه ولقارئيه .

قال الترمذي -رحمه الله- معلقًا على حديث النواس وهو يشبه هذا الحديث:

وفي الباب عن بريدة، وأبي أُمامة...، ومعنى هذا الحديث عند أهل العلم أنه يجيء ثواب قراءته، كذا فسَّر بعض أهل العلم هذا الحديث ، وما يشبه هذا من الأحاديث: أنه يجيء ثواب قراءة القرآن، وفي حديث النواس عن النبي ﷺ ما يدل على ما فسروا؛ إذ قال النبي ﷺ : وأهله الذين يعملون به في الدنيا ، ففي هذا دلالة أنه يجيء ثواب العمل.

وقال ابن عثيمين -رحمه الله- (فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه) إذا كان يوم القيامة جعل الله -عز وجل- ثواب هذا القرآن شيئًا قائمًا بنفسه، يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه يشفع لهم عند الله -سبحانه وتعالى-، فإن القرآن إذا تلاه الإنسان محتسبًا فيه الأجر عند الله؛ فله بكل حرفٍ عشر حسنات.

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- وهذه الشفاعة على تقدير أن يكون القارئ صاحب كبيرة في تخليصه من النار، وإن لم يكن عليه ذنوب شُفع له في ترفيع درجاته في الجنة، أو في المسابقة إليها، أو في جميعهما، أو ما شاء الله منها؛ إذ كلُّ ذلك بكرمه تعالى وتفضُّله.

٣-أسباب الشفاعة :

أولاً: الإخلاص.

لحديث أبي هريرة . قال : قال ﷺ (أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِه).

ثانياً: قراءة القرآن.

كما في حديث الباب (اقرؤا القرآن فإنه يأتي شفيعاً لأصحابه يوم القيامة) .

ثالثاً: سكنى المدينة والموت بها.

قال ﷺ (من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإني أشفع لمن يموت بها) رواه الترمذي .

رابعاً: الصلاة على النبي ﷺ .

كما قال ﷺ (من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة ... حلت له شفاعتي يوم القيامة).

٤-قوله (**اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا**) .

تخصيص بعد تعميم : حث على قراءة سورة البقرة وآل عمران .

(**اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ**) تثنية الزهراء، تأنيث الأزهر، وهو المضيء الشديد الضوء، أي السورتين المنيرتين، سُمّيتا بالزهراوين؛ لنورهما وهدايتهما، وعِظَم أجرهما لقارئهما.

قال القرطبي: للعلماء في وجه تسمية البقرة وآل عمران بالزهراوين ثلاثة أقوال:

الأول: أنهما النيرتان، لهدايتهما قارئهما مما يزهر له من أنوارهما أي من معانيهما.

الثاني: لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة.

الثالث: سميتا بذلك لأنهما اشتركتا فيما تضمنه اسم الله الأعظم.

وقال القاضي عياض -رحمه الله-معنى (الزهراوين) المنيرتان، إما لهدايتهما قارئهما، أو لما يُسبّب له أجرهما مِن النور يوم القيامة.

وقال النووي -رحمه الله- قوله (الزهراوين) قالوا: سميتا الزهراوين لنورهما وهدايتهما، وعظيم أجرهما

وقال ابن الملك -رحمه الله- (فإنهما يأتيان يوم القيامة) إتيانهما: كناية عن إتيان ثواب قراءتهما، بأن يصوِّر الله تعالى صورتين مناسبتين لثوابهما، فيجيئان «كأنهما غمامتان» وهي: ما يغمُّ الضوء ويمحوه؛ لشدة كثافته.

وقال الملا علي القاري -رحمه الله- (فإنهما) أي: ثوابهما الذي استحقه التالي العامل بهما، أو هما يتصوران ويتجسدان ويتشكلان، «تأتيان» أي: تحضران «يوم القيامة كأنهما غمامتان» أي: سحابتان تُظِلان صاحبهما عن حرِّ الموقف، قيل: هي ما يغم الضوءَ ويمحوه؛ لشدة كثافته.

٥- قوله (**فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ**) .

أي: سحابتان تظلّان صاحبهما عن حرّ الموقف، وإنما سُمّي غَمَامًا؛ لأنه يَغُمّ السماء، أي يسترها.

(أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ) تثنية غَيَاية، بفتح الغين المعجمة، وتخفيف الياءين من تحتُ، وهي كل شيء أظلّ الإنسان فوق رأسه، من سحابة، أو غَبَرَة، أو غيرهما، قاله الجزريُّ.

قال المناويُّ: هي ما أظلّ الإنسان فوقه، وأراد به ما له صفاء وضوء؛ إذ الغياية ضوء شُعاع الشمس.

وقال ابن حجر الهيتمي -رحمه الله- (غيايتان) تثنية غياية، بمعجمة فتحتية، ثم تحتية، وهي الظلة التي تكون فوق الرأس، كما يُفعل بالملوك، وهذا لكون أعلى وأظل من السحابة العامة لكل أحد، والبعيدة عن الرأس، لمن أتقن اللفظ، فحفظه، ودرى المعنى، فعمل به.

وقال ابن الملك -رحمه الله- (أو غيايتان) وهي: ما يكون أدون منها (أي: من الغمامة) فيحصل عنده الضوء والظل جميعًا.

وقال الملا علي القاري -رحمه الله- (أو غيايتان) وهي بالياءين: ما يكون أدون منهما في الكثافة وأقرب إلى رأس صاحبهما، كما يُفعل بالملوك، فيحصل عنده الظل والضوء جميعًا .

٦- قوله (**أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا**) .

(أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ) تثنية فِرْق -بكسر الفاء، وسكون الراء-: أي قَطِيعان، يعني طائفتان وجماعتان (مِنْ طَيْرٍ) جمع طائر (صَوَافَّ) جمع صافّة، وهي الجماعة الواقفة على الصفّ.

(تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا) قال الشوكانيّ: "يُحاجّان" أي يُقيمان الحجّة لصاحبهما، ويُجادلان عنه، وصاحبهما هو المستكثر من قراءتهما، وظاهر الحديث أنهما يتجسّمان حتى تكونا كأحد هذه الأشياء الثلاثة التي شبّههما بها النبيّ ﷺ ، ثم يُقدرهما الله تعالى على النطق بالحجة، وذلك غير مستبعد من قدرة القادر القويّ الذي يقول للشيء (كُنْ فَيَكُونُ).

وقال الصنعاني -رحمه الله- (تُحَاجَّان عن أصحابهما) تُجادلان عنهم بالشفاعة، بدليل صدر الحديث، أو تجادلان عنه عند السؤال إذا خرس لسانُه، وتَقلصتْ شفتاه، وضاعت معاذيرُه.

وقال البيضاوي -رحمه الله- (تُحَاجَّان) لا جرَمَ تُمثَّل له يوم القيامة مساعيه طيورًا صوافّ يحرسونه، ويحاجّون عنه؛ بالدلالة على سعيه في الدِّين، ورسوخه في اليقين، والإشعار بفضله، وعلو شأنه، والضمير في «تُحَاجَّان» للسورتين .

٧-قوله (**اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ**) .

تخصيص بعد تخصيص، حث على المداومة على قراءة سورة البقرة .

فضائلها :

حث النبي ﷺ على قراءتها .

كما في حديث الباب .

وأخذها بركة.

لقوله ﷺ (فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ)

وتركها ندامة.

قال ﷺ (وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ).

تطرد السحر.

قال ﷺ (وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ).

ينفر الشيطان من البيت الذي تقرأ فيه.

كما في حديث أبي هريرة . قال : قال ﷺ (لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِى تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَة) .

وفيها أعظم آية في كتاب الله.

آية الكرسي.

وفي آخر آيتين منها فضل كبير.

قال ﷺ (مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ) متفق عليه.

٨-قوله (**فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**) .

فضل من فضائل سورة البقرة، وأن في أخذها والعمل بها بركة عظيمة .

فالمراد : المواظبة على تلاوتها، والعمل بها، والمصابرة على ما تستدعي إليه من مساورة النفوس، ومخالفة الهوى.

قال عبيد الله المباركفوري –رحمه الله– (فإنَّ أخذها) أي: في المواظبة على تلاوتها، والتدبر في معانيها، والعمل بما فيها (بركة) أي: زيادة ونماء، وقيل: أي: منفعة عظيمة.

قوله (وتَرَكَها حَسْرة) أي: ندامة.

قال المناوي –رحمه الله– (وتركَها حسرة) تندُّم على ما فات مِن ثوابها. .

وقال الصنعاني –رحمه الله– (وتركها حسرة) لأنه جهلٌ لمهم من الدِّين، مَن أهمله تحسَّر على فواته في الدنيا؛ لأن الجهل داءٌ، وفي الآخرة لأنه يَرى ما يناله العالِمون لها مِن كرامةِ الله لهم فيَتحسَّر .

قوله (**وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**) أي : السحرة .

قال البيضاوي –رحمه الله– (لا تستطيعها البَطَلَة) أي: السَّحرة، عبَّر عن السحرة بالبطلة؛ لأن ما يأتون به باطل، سماهم باسم فعلهم، وإنما لم يقدروا على حفظها، ولم يستطيعوا قراءتها؛ لزيغهم عن الحق، واتباعهم للوساوس، وانهماكهم في الباطل.

وقال الفيومي –رحمه الله– (ولا تستطيعها البَطَلَة) وهُم السَّحرة؛ لمجيئهم بالباطل، إذا قرئت في بيتٍ لم تدخله مردة الشياطين ثلاثة أيام.

٩–قوله (**يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ**) .

قوله (... وأهلِهِ الذين كانوا يعملونَ به) هذا إعلامٌ بأنَّ من قرأ القرآن ولم يعملْ به –أعني: لا يحرِّمُ حرامَهُ، ولا يحلِّلُ حلاله، ولا يعتقد عظمته وحرمته– لم يكن القرآنُ شفيعًا له يوم القيامة، وليس له حظٌّ من تلاوته .

قال الملا علي القاري –رحمه الله– (الذين كانوا يعملون به) دلَّ على أن مَن قرأ ولم يعمل به لم يكن من أهل القرآن .

١٠–**قال القاضي عياض** –رحمه الله– قوله (اقرؤوا الزهراوين؛ البقرة وآل عمران) حجةٌ لمن أجاز أن يقال: سورة البقرة وآل عمران، واختار بعضهم أن يقال: السورة التي تذكر فيها كذا. .

وقال النووي –رحمه الله– يجوز أن يقولَ: سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة النساء، وسورة العنكبوت، وكذلك الباقي، ولا كراهةَ في ذلك، وقال بعض السلف: يُكره ذلك، وإنما يُقال: السورة التي تُذكر فيها البقرة، والتي يُذكر فيها النساء، وكذلك الباقي، والصواب الأوّل، وهو قولُ جماهير علماء المسلمين من سلف الأمة وخلفها، والأحاديثُ فيه عن رسول الله ﷺ أكثر من أن تحصر، وكذلك عن الصحابة فمن بعدهم.

وقال البغوي –رحمه الله– فيه: دليل على أنه يجوز أن يقال: سورة البقرة، وكرِهه بعضهم، وقال: ينبغي أن نقول: السورة التي يذكر فيها البقرة، وكذلك أمثالها، والأول أولى وأصح.

١١–**قال ابن هبيرة** –رحمه الله–هذا الحديث: يدل على فضيلة سورة البقرة، وتقديمها على غيرها، وإنما لَكَذَلِكَ؛ فإنها جمعت من أحكام الشرع ما لم تجمعه سورة في القرآن، وهي مشتملة على صفات المؤمنين، وصفات المنافقين، وشرح قصص بني إسرائيل، والزجر عن السِّحر والرِّبا، وذكر القبلة والصلاة والصوم والحج والعمرة، والطلاق والعُدَد، والديون والشروط والرهن والقصاص، وغير ذلك من الأحكام .

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ قَرَأَ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ).

[خ : ٥٠٩] .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ (بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ) .

==========

(**سَمِعَ نَقِيضًا**) **قال النوويُّ**: أي صوتًا كصوت الباب إذا فتح.

(**مِنْ فَوْقِهِ**) وفي رواية الحاكم (من السماء) .

(**فَرَفَعَ رَأْسَهُ**) أي : لينظر إلى سبب النقيض المسموع، وفي رواية النسائيّ (فرفع جبريل عليه السلام بصره إلى السماء) .

(**فَقَالَ هَذَا**) أي : هذا الصوت .

(**بَابٌ**) أي : صوت باب .

(**مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ**) أي: نزل من ذلك الباب الذي لم يُفتح قبل ذلك الوقت ملك.

(**فَقَالَ**) جبريل .

(**فَسَلَّمَ**) ذلك الملك النازل على النبيّ ﷺ وعلى الحاضرين .

(**وَقَالَ أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا**) أي : افرح بسبب نورين أعطيتهما .

(**لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا**) أي : مما فيه من الدعاء، الخطاب له عليه السلام والمراد هو وأمَّته؛ إذ الأصل مشاركتهم له في كل ما أُنزل عليه إلا ما اختص به .

(**إِلاَّ أُعْطِيتَهُ**) أي : أُعطيت مقتضاه، من العون، والهداية إلى الصراط المستقيم، في الفاتحة، ومن المغفرة، وعدم المؤاخذة في النسيان، والخطأ، وعدم تحميل الإصر، وما لا يطاق، والعفو، والرحمة، والنصر على الكفار، في خواتيم سورة البقرة.

١-هذه الأحاديث فيها فضل آخر آيتين من سورة البقرة .

فيستحب قراءتها ليلاً ، فمن قرأهما في ليلة كفتاه .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى : لكن ما قيد في الليل، فهو في الليل، كآية الكرسي ... وكذلك الآيتان آخر سورة البقرة ... أخبر النبي ﷺ أن من قرأهما في ليلة كفتاه .

٢-فضائلها :

أولاً : من قرأهما في ليلة كفتاه .

لحديث الباب (مَنْ قَرَأَ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ).

وقد اختلف في معنى : كفتاه .

قيل : كفتاه من الشيطان .

وقيل : من قيام الليل .

وقيل: كفتاه ما يكون من الآفات تلك الليلة .

قال النووي رحمه الله : قِيلَ : مَعْنَاهُ كَفَتَاهُ مِنْ قِيَام اللَّيْل وَقِيلَ : مِنْ الشَّيْطَان ، وَقِيلَ : مِنْ الْآفَات ، وَيَحْتَمِل مِنْ الْجَمِيع .

وقال ابن القيم رحمه الله : الصحيح أن معناها: كفتاه من شر ما يؤذيه .

وقال ابن الملقن –رحمه الله– وفي قوله: «كفتاه» أقوالٌ: أظهرها: مِن قيام ليلة، وقد جاء مصرحًا به في رواية علقمة عن أبي مسعود البدري أنه قال (من قرأ خاتمة سورة البقرة أجزأت عنه قيام ليلة)... وقريب منه (أقلُّ ما يكفي من قيام الليل آيتان) يريد مع أم القرآن.

وقال النووي في (الأذكار): اختلف العلماء في معنى كفتاه، فقيل: من الآفات في ليلته: وقيل: كفتاه من قيام ليلته ، قلت: ويجوز أن يُراد الأمران.

وقال الشوكاني –رحمه الله– ويؤيد ذلك ما تقرر في عِلم المعاني والبيان مِن أنَّ حذف المتعلِّق مُشعِر بالتعميم، فكأنه قال: كفتاه من كُل شر، أو مِن كل ما يخاف، وفضل الله واسع .

ثانياً : أنهما نور ولم يؤتهما نبي قبل الرسول ﷺ .

لحديث الباب (أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ) .

قال القرطبيُّ: قوله: "بنورين" أي بأمرين عظيمين نَيِّرين مبيِّنين لقارئهما، ومنوّرين له، وخُصّت "الفاتحة" بهذا؛ لتضمّنها جملة معاني الإيمان والإسلام والإحسان، فهي آخذة بأصول القواعد الدينيّة، والمعاقد المعارفيّة.

وخُصّت خواتيم سورة البقرة بذلك؛ لما تضمّنته من الثناء على النبي ﷺ وعلى أصحابه ﷺ بجميل انقيادهم لمقتضاها، وتسليمهم لمعناها، وابتهالهم إلى الله تعالى، ورجوعهم إليه في جميع أمورهم، ولما حَصَل فيها من إجابة دعواتهم بعد أن عَلِموها، فخَفَّف عنهم، وغَفَرَ لهم، ونصرهم، وفيها غير ذلك مما يطول تتبّعه.

وقال الملا علي القاري –رحمه الله– سمَّاهما نورين؛ لأن كل واحدة منهما نور يسعى بين يدي صاحبهما، أو لأنهما يُرشدان إلى الصراط المستقيم بالتأمل فيه والتفكر في معانيه .

وقال ابن حجر الهيتمي –رحمه الله– (فقال: أَبْشِرْ بنورين) أي: لأن كلًّا منهما يكون لصاحبه نورًا يوم القيامة يسعى أمامه؛ لإجلاله وتعظيمه، أو في الدنيا؛ بالتأمل في معانيهما، كناية عن هدايته بسبب ذلك إلى الصراط المستقيم.

وقال البيضاوي –رحمه الله– وإنما سماهما: «نُورين» لأن كلًّا منهما يكون لصاحبه في القيامة نورًا يسعى أمامه، أو لأنه يرشده ويهديه بالتأمل فيه والتفكر في معانيه إلى الطريق القويم والمنهج المستقيم؛ وذلك لاشتمالهما على جملة ما تحويه الكتب السماوية مِن الحكم النظرية والأحكام العلمية والتصفية الروحانية، وبيان أحوال السعداء والأشقياء والترغيب على الطاعة والترهيب عن المعاصي بالوعد والوعيد إجمالًا، مع السؤال بشرطه لما فيه صلاح الدارين والفوز بالحسنين، فلذلك بُشِّر بالإجابة.

ثالثاً : أن النبي ﷺ أعطيها ليلة الإسراء والمعراج من تحت العرش .

عَنْ عَبْدِ الله، قَالَ (لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ ... فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُقْحِمَاتُ) رواه مسلم .

وعند أحمد (اقرؤوا هاتين الآيتين اللتين من آخرِ سورةِ البقرةِ؛ فإنَّ ربي أعطانيهما من تحتِ العَرْشِ) .

وفي رواية (من كنز تحت العرش) .

قال الصنعاني –رحمه الله– (من تحت العرش) أي: من ذلك المكان الرفيع، والجَناب المنيع؛ تنويهًا بشأنها، وإعلامًا بأنها ما أُنزلت على بشر قبله، وكأن ذلك لما فيها من الفضيلة العامة للأمَّة من حظر الأمر عنها، وتلقيها بالدعوات التي في آخرها، ويأتي حديث حذيفة (أُعطيتُ هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يُعطها نبيٌّ قبلي) .

قال المناوي –رحمه الله– الكنز: النفائس المدفونة الْمُدَّخرة، فهو إشارة إلى ذكر أنها ادُّخِرت لنبينا ﷺ فلم تنزل على من قبله .

وقال الصنعاني –رحمه الله– (من كنز) بالنون والزاي وهو المعدن في الأصل، وأريد به هنا: معدن خير الأقوال، أي: نزلن من شيء مكنوز، «تحت العرش» في أشرف محل، والمراد به: أنه شيء ما أعطاه الله أحدًا قبله ﷺ كما صرَّح به حديث حذيفة في خواتيم البقرة أنه لم يُعطَها نبي قبله ﷺ .

رابعاً : من قرأ بهما في بيت لم يقربه شيطان .

عن النعمان بن بشير – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال (إن الله كَتَب كتابًا قبل أن يَخلُق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين خَتَم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال، فيَقْرَبَها شيطان) رواه الترمذي .

الخلاصة :

في هذا الحديث: ما يدل على تكريم هذه الآيات؛ بأن فُتح لها باب لم يُفتح قبلُ، وأُرسل بها مَلك لم يُرسَل قبلُ، وتسميتها بنورين، وأنه لم يؤتها نبي قبل محمد ﷺ . (ابن هبيرة)

٣–الحديث دليل على فضل سورة الفاتحة .

فهي أعظم سورة في القرآن.

عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى قَالَ (كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي فَقَالَ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ} ثُمَّ قَالَ لِي لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ أَلَمْ تَقُلْ لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَالَ {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ) رواه البخاري.

قال الخطابي –رحمه الله– قوله (هي أعظم سور القرآن) يعني: بذلك عِظَم المثوبة على قراءتها؛ وذلك لِمَا تجمع هذه السورة من الثناء على الله –عز وجل–، والدعاء والمسألة، وقد رُوِي عن محمد بن علي بن الحسين أنه قال: «سورة الحمد أولها ثناء، ووسطها إخلاص، وآخرها مسألة الله –عز وجل» .

وقال ابن الملك –رحمه الله– (أعظمَ سورة في القرآن...) سَمَّى الفاتحةَ (أعظم سورة) لاشتمالها على المعاني التي في القرآن: من الثناء على الله بما هو أهله، والتعبّد بالأمر والنهي، ومن الوعد والوعيد؛ لأن فيه ذِكرَ رحمة الله على الوجه الأبلغ الأشمل، وذِكرَ تفرّده بالْمُلك وعبادة عباده إياه، واستعانتهم إياه، وسؤلهم منه؛ ولا سورةَ بهذه المثَابة.

وقال الملا علي القاري –رحمه الله– (أعظم سورة من القرآن ...) فهي أعظم كيفية، وإن كان في القرآن أعظم منها كمية .

وقال الشيخ فيصل ابن المبارك –رحمه الله– في هذا الحديث: دليل على أن الفاتحة أعظم سورة في القرآن...، قال العلماء: وإنما كانت أعظم سورة؛ لأنها جمعت جميع مقاصد القُرآن؛ ولِذا سُميت بأم القرآن .

قوله (هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي)

قال الحافظ: اخْتُلِفَ فِي تَسْمِيَتِهَا "مَثَانِي" فَقِيلَ لِأَنَّهَا تُثَنَّى كُلّ رَكْعَة أَيْ تُعَاد، وَقِيلَ لِأَنَّهَا يُثْنَى بِهَا عَلَى اللَّه تَعَالَى، وَقِيلَ لِأَنَّهَا اُسْتُثْنِيَتْ لِهَذِهِ الْأُمَّة لَمْ تَنْزِل عَلَى مَنْ قَبْلهَا. انتهى.

وقال ابن الجوزي –رحمه الله– قوله (هِيَ السَّبع) لأنها سبع آيَات، وَإِنَّمَا سميت بالمثاني لأنها تُثنى فِي كل ركعة، قاله ابن الأَنبَاري، وقيل: لأنها مما أُثني به على الله –عز وجل– ذكره الزّجاج.

وهي نور .

كما في حديث الباب (**أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ**) .

ولم يرد أفضل منها في الكتب السماوية .

قال رسول الله ﷺ (والذي نفْسي بيَدِه، ما أُنزِلَ في التوراةِ، ولا في الإنجيلِ، ولا في الزَّبورِ، ولا في الفُرقانِ مِثلُها) رواه الترمذي.

وهي ركن من أركان الصلاة، لا تصح الصلاة إلا بها.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَال (لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَاب) متفق عليه.

وهي السبع المثاني.

التي قال الله فيها (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيم).

وهي متضمنة لأنفع الدعاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في: (إياك نعبد وإياك نستعين) " انتهى.

وبالجملة: فسورة الفاتحة مفتاح كل خير وسعادة في الدارين.

قال ابن القيم: فاتحة الكتاب وأم القرآن والسبع المثاني والشفاء التام والدواء النافع والرقية التامة ومفتاح الغنى والفلاح وحافظة القوة ودافعة الهم والغم والخوف والحزن لمن عرف مقدارها وأعطاها حقها وأحسن تنزيلها على دائه وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها والسر الذي لأجله كانت كذلك. ... (زاد المعاد)

فائدة :

قال الشوكاني –رحمه الله– هذا يدل على أنه نزل بالفاتحة وخواتيم سورة البقرة مَلَك غير جبريل، وقيل: إن جبريل نزل قبل هذا الْمَلك معلمًا ومُخبرًا بنزول الملك فهو مشارك له في إنزالها.

وقال القرطبي: إنّ جبريل نزل بها أولًا بمكة ثم أُنزل هذا الملك ثانيًا بثوابها .

٤– قوله (فَاتِحَةُ الْكِتَابِ) هذا اسم من أسمائها، وفاتحة الكتاب ولها أسماء:

منها: فاتحة الكتاب.

كما في حديث الباب.

لأنه يفتتح بها القرآن كتابة وقراءة.

ومنها: الصلاة.

كما في الحديث القدسي (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال: حمدني عبدي ...). رواه مسلم

ومنها: أم الكتاب.

كما في حديث أبي سعيد (... وما رقيت إلا بأم الكتاب) متفق عليه.

ومنها: السبع المثاني.

لقوله (أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته) رواه البخاري.

ومنها: الرقية.

لأن أبا سعيد رَقى بها.

ومنها: الشافية.

لأن اللديغ شفيَ بها بإذن الله.

قال العلماء: كثرة الأسماء يدل على شرف المسمى.

٥-**قال ابن الجوزي** -رحمه الله- قد يُشكل هذا الحديث فيقال: كأنَّ سورة البقرة أوتيها نبي قبله، أو آل عمران أو غير ذلك من القرآن، فكيف خصَّ الفاتحة وخواتيم البقرة؟

والجواب: أن المقصود ما فيهما؛ فإن الفاتحة قد علمنا فيها سؤال الصراط المستقيم، وقد وُهب لأمَّتنا فيها ما لم يُوهب لمتقدمي الأمم، وسلمت من أوصاف المغضوب عليهم وهم اليهود، والضالين، وهم النصارى، وآمنت بجميع كتب الله ورسوله، ولم تفرق بين رسول ورسول كما فرَّقت الأمم قبلها في الإيمان بالرسل، وقالت: سمعنا وأطعنا، وقد قال مَن قبلها: وعصينا، وعُفي لها عن الخطأ والنسيان، ولم يُحمل عليها إصرًا -وهو الثقل- كما حُمل على مَن قبلها، ولا ما لا طاقة لها به، فإن قال قائل: فقد قال: «افترقت أمَّة موسى وعيسى، وستفترق أمَّتي» فالجواب: أن الفِرقة الناجية من هذه الأمَّة أكثر من الفِرَق الضالة من غيرها، فهذه الأمَّة إلى السلامة أقرب، وإذا أردتَ اعتبار الأحوال فانظر إلى قوم موسى، كيف عُرضت لهم غزاة في العمر فقالوا: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا} وكان أصحاب نبينا ﷺ يستجيبون له مع الجراح والقَرْحِ، وأولئك يقولون لموسى: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا} وهؤلاء يتلو أطفالهم: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} وقد سبق في المتفق عليه من مسند ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، إني أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»، وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: أهل الجنة مائة وعشرون صفًّا، أمَّتي منهم ثمانون .

٦-قوله (الفاتحة أعظم سورة ..) .

دليل على أن القرآن بعضه أفضل من بعض.

وَهَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ مِنْ الْخَلَفِ وَالسَّلَفِ.

قال السيوطي في الإتقان: وذهب آخرون إلى التفضيل لظواهر الأحاديث، منهم: إسحاق بن راهويه، وأبو بكر بن العربي، والغزالي.

وقال القرطبي : إنه الحق ، ونقله عن جماعة من العلماء والمتكلمين .

وقال ابن الحصّار : العجب ممن يذكر الاختلاف في ذلك ، مع النصوص الواردة بالتفضيل .

أ-لقوله ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي الْفَاتِحَةِ (أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا الزَّبُورِ وَلَا الْقُرْآنِ مِثْلُهَا) فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لَهَا مِثْلٌ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إنَّهُ مُتَمَاثِلٌ؟

ب- وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ (أَنَّهُ قَالَ لأبي بْنِ كَعْبٍ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ؛ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ؟ قَالَ (اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِهِ وَقَالَ لَهُ ليهنك الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ) .

فَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَعْظَمُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ وَهَذَا بَيَّنَ أَنَّ بَعْضَ الْآيَاتِ أَعْظَمُ مِنْ بَعْضٍ.

ج-وَأَيْضًا فَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ وَالْكَلَامُ يَشْرُفُ بِالْمُتَكَلِّمِ بِهِ سَوَاءٌ كَانَ خَبَرًا أَوْ أَمْرًا، فَالْخَبَرُ يَشْرُفُ بِشَرَفِ الْمُخْبِرِ وَبِشَرَفِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ، وَالْأَمْرُ يَشْرُفُ بِشَرَفِ الْآمِرِ وَبِشَرَفِ الْمَأْمُورِ بِهِ، فَالْقُرْآنُ وَإِنْ كَانَ كُلُّهُ مُشْتَرَكًا فَإِنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ لَكِنَّ مِنْهُ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ

نَفْسِهِ وَمِنْهُ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ خَلْقِهِ وَمِنْهُ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ، فَمِنْهُ مَا أَمَرَهُمْ فِيهِ بِالْإِيمَانِ وَنَهَاهُمْ فِيهِ عَنْ الشِّرْكِ، وَمِنْهُ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ بِكِتَابَةِ الدَّيْنِ وَنَهَاهُمْ فِيهِ عَنْ الرِّبَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أَعْظَمُ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ خَلْقِهِ: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) وَمَا أَمَرَ فِيهِ بِالْإِيمَانِ وَمَا نَهَى فِيهِ عَنْ الشِّرْكِ أَعْظَمُ مِمَّا أَمَرَ فِيهِ بِكِتَابَةِ الدَّيْنِ وَنَهَى فِيهِ عَنْ الرِّبَا. (ابن تيمية)

القول الثاني : قال الفيومي –رحمه الله– وقال قوم لا تفضيل لبعض على بعض؛ لأن الجميع كلام الله تعالى، وكذلك أسماء الله تعالى لا مفاضلة بينها .

وإلى هذا ذهب الشيخ أبو الحسن الأشعري، والقاضي أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم البستي، وجماعة من الفقهاء.

واستدلوا :

أ–أنَّ الجميع كلام الله عز وجل، وكلامه صفة له، والصفة لا تتفاضل، ولا سيما مع القول بأنه قديم لا يتفاضل، وذلك ظاهر في القول ابن جرير وابن حبان.

ب– أنَّ القرآن كله واحد مُنزل من عند الله، فكيف يتفاضل بعضه على بعض وأصله واحد، ولذلك قالوا في قوله تعالى (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) أن خير تعود إلى غير الآية، مثل نفع العباد وثوابهم.

ج– ألاَّ يوهم التفضيل نقص المفَضَّل عليه، وبهذا علَّل العلماء نهي النبي ﷺ عن تفضيل بعض الأنبياء على بعض، لأنَّ الغالب أنَّ المفَضَّل عليه يكون في رتبة دون الأفضل.

والراجح الأول .

قال ابن تيمية –رحمه الله– قد عُلم أن تفاضل القرآن وغيره من كلام الله ليس باعتبار نسبته إلى المتكلِّم، فإنه سبحانه واحد، ولكن باعتبار معانيه التي يَتكلم بها، وباعتبار ألفاظه المبينة لمعانيه، والذي قد صح عن النبي ﷺ أنه فضَّل مِن السُّور سورة الفاتحة، وقال: «إنه لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في القرآن مثلها» والأحكام الشرعية تدل على ذلك، وقد بسط الكلام على معانيها في غير هذا الموضع، وفضَّل مِن الآيات آيةَ الكرسي، وقال في الحديث الصحيح لأُبي بن كعب: «أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم؟ قال (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) فضرب بيده في صدره، وقال: لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر» وليس في القرآن آية واحدة تضمنت ما تضمنته آية الكرسي، وإنما ذَكر الله في أول سورة الحديد، وآخر سورة الحشر عدَّة آيات لا آية واحدة.

وقال ابن تيمية: إنما غلط من قال بالأول لأنه نظر إلى إحدى جهتي الكلام، وهي جهة المتكلِّم به، وأعرض عن الجهة الأخرى، وهي جهة المتكلّم فيه، وكلاهما للكلام به تعلق يحصل به التفاضل والتماثل.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ) .

==========

(**الدَّجَّالِ**) أي: الكذاب، والمراد به من فتنة المسيح الدجال.

والدَّجل: هو الخلط والتلبيس، يقال دَجَلَ إذا لبّس ومَوَّهَ، والدجال: المموِّه الكذاب، الذي يُكثِر من الكذب والتلبيس.

ولفظة " الدجال " أصبحت عَلَماً على المسيح الأعور الكذاب، وسمي الدجال دجالاً: لأنه يغطي على الناس كفره بكذبه وتمويهه وتلبيسه عليهم.

(**عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ**) أي : حفِظ من شره وفتنته .

١ – الحديث دليل على أن حفظ أول سورة الكهف سبب للنجاة من فتنة الدجال.

وقد جاء عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ. قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فقال (... إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِئَةٌ كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ ...) رواه مسلم.

٢ – الحكمة في ذلك:

قال النووي: سَبَب ذَلِكَ مَا فِي أَوَّلهَا مِنْ الْعَجَائِب وَالآيَات، فَمَنْ تَدَبَّرَهَا لَمْ يُفْتَتَن بِالدَّجَّالِ، وَكَذَا فِي آخِرهَا قَوْله تَعَالَى: (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا ..).

وقال المناوي: لما في قصة أهل الكهف من العجائب فمن علمها لم يستغرب أمر الدجال فلا يفتن، أو لأن من تدبر هذه الآيات وتأمل معناها حذره فأمن منه أو هذه خصوصية أودعت في السورة.

وقال ابن الجوزي –رحمه الله– وأمَّا تخصيص ذلك بعشر آيات من أوَّلِ الكهف فالذي يظهر لنا فيها من الحكمة أن قوله تعالى (لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ) يُهوِّن بأس الدَّجَّال، وقوله (وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا) يهوِّن الصَّبر على فتن الدَّجَّال بما يظهر من نعيمه وعذابه، وقوله: (وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) وقوله (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) فذمَّ من يدَّعي له ولدًا، ولا مثل له، فكيف يدَّعي الإلهيَّة من هو مثل للخلق، فقد تضمَّنت الآيات ما يصرف فتنة الدَّجَّال، إلى قوله (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) فهؤلاء قوم ابتلوا فصبروا، وسألوا صلاح أمورهم فأُصلحت، وهذا تعليم لكُلِّ مدعو إلى الشِّرك.

وقال القاضي عياض –رحمه الله– قوله (مَن أول سورة الكهف) قيل: لِمَا في قصة أصحاب الكهف من العجب والآيات، فمَنْ علمها لا يستغرب أمر الدَّجَّال، ولا فتن به، أو يكون هذا من خصائص الله لمن حفظ ذلك، فقد روي (من حفظ سورة الكهف ثم أدرك الدَّجَّال لم يسلَّط عليه) وعلى هذا تنزُّل الرِّواية الأخرى: «من آخر سورة الكهف» وقيل: لِمَا في قوله (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء) وما بعدها، فيه من التَّنبيه على أمر الدَّجَّال والتَّنبيه على المفتونين والأخسرين أعمالًا، وفي آخر الآيات من ذكر التَّوحيد وأن لا يُشرك بالله أحدًا.

وقال الفيومي –رحمه الله– ويُحتمل: أن يكون التَّخصيص بعشر آيات من أَوَّل سورة الكهف لِمَا فيه من ذكر خلاص أصحاب الكهف من شرِّ الكفرة المتجبِّرة.

٣ – كيفية الوقاية من فتنة الدجال:

أولاً: حفظ أول سورة الكهف.

لحديث الباب (مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ) رواه مسلم.

ثانياً: الاستعاذة منه في الصلاة

عن أم المؤمنين عائشة أن رسول الله ﷺ كان يدعو في الصلاة (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ) متفق عليه.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ) رواه مسلم.

ثالثاً : سكنى مكة والمدينة .

عن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال (ليس من بَلَدٍ إلا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، ليس له من نِقَابها نقب إلا عليه الملائكة، صافّين يَحْرُسونها، ثم تَرْجُف المدينة بأهلها ثلاث رَجَفات، فَيُخْرِجُ الله كلَّ كافر ومنافق) متفق عليه.

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لاَ يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ رُعْبُ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ لَهَا يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ بَابٍ مَلَكَانِ). رواه مسلم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلاَئِكَةٌ لاَ يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ، وَلاَ الدَّجَّالُ). متفق عليه

رابعاً : الفرار منه والابتعاد عنه.

عن عمران بن حصين ﷺ عن النبي ﷺ قال (مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ -يبتعد- مِنْهُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَأْتِيهِ يَتَّبِعُهُ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ بِمَا يُبْعَثُ بِهِ مِنْ الشُّبُهَات) رواه أبو داود.

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- يأمر الرسول ﷺ مَن لَقِيَ الدَّجّالَ أن يثبت ويَصْبِرَ كما في حديث (يا عباد الله اثْبُتُوا) فإن لَبْثَه في الأرض قليلٌ على ما يأتي، وأمَّا مَن سَمِعَ به ولم يَلْقَه فلْيَبْعُدْ عنه، ولْيَفِرَّ بنفسه، كما خرجه أبو داود من حديث عمران بن حصين ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ سمِع بالدجال فَلْيَنْأَ عنه.

وقال الملا علي القاري -رحمه الله- (فَلْيَنْأَ) بفتح الياء وسكون النون وفتح الهمزة، أمْرُ غائبٍ، مِن نَأَى يَنْأَى، حذف الألف للجزم، أي: فَلْيَبْعُدْ «منه» أي: مِن الدَّجال؛ لأن البُعد عن قُرْبه سُعْد، قال تعالى (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّار). والرُّكُونُ: أدْنَى الْمَيْل.

وقال السندي -رحمه الله- (فَلْيَنْأَ ...) أي: فلْيَبْعُدْ عنه، وهكذا حُكْمُ كلِّ دَجَّال، فالبُعد عنه خير من قُرْبِه.

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- فكلُّ أسبابِ الفِتن يجب على المرءِ الحذر منها، والبُعْد عنها.

٤-قوله (**من حفظ** ....) .

قال الصنعاني -رحمه الله- كأنّ المراد حفظًا في القلب. .

وقال الشيخ محمد بن علي الإتيوبي -رحمه الله- جاء بيان المراد من حفظها فيما أخرجه مسلم في (كتاب الفتن) وأبو داود في (الملاحم) من حديث النواس بن سمعان الكلابي ﷺ في حديث الدَّجال الطويل، وفيه: (فمن أدركه منكم، فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف) هذا لفظ مسلم، ولفظ أبي داود (فمن أدركه منكم، فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، فإنها جواركم من فتنته) .

فقد أوضح في هذا الحديث أن المراد ليس حفظها فقط، بل لا بُدَّ من قراءتها في وجهه.

٥-إثبات الدجال وأنه من علامات الساعة في آخر الزمان .

قال الفيومي -رحمه الله- الدَّجال هو الذي يظهر في آخر الزَّمان يدعي الألوهيَّة، مأخوذ من الدَّجل، وهو تمويه الشَّيء، وسُمِّي الكذَّاب دجّالًا منه .

٦ - خطر فتنة الدجال.

٧ - حديث عمران (من سمع بالدجال فلينأ ...) دليل على أن اعتزال الفتن سبب من أسباب النجاة.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ) رواه البخاري.

قال الخطابي: فيه الحث على العزلة أيام الفتن.

وقال الحافظ ابن حجر: والخبر دال على فضيلة العزلة لمن خاف على دينه.

قال ابن القيم: قال النبي ﷺ (من سمع بالدجال فلينأ عنه) فما استعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه.

وقال ابن الجوزي: من قارب الفتنة بعدت عنه السلامة، ومن ادّعى الصبر وُكِل إلى نفسه.

وقال: إياك إياك أن تغتر بعزمك على ترك الهوى، مع مقاربة الفتنة، فإن الهوى مكايد.

٨ – الاعتصام والتمسك بكتاب الله سبب للنجاة من الفتن.

٩ – أن المسيح الدجال من أشراط الساعة الكبرى.

١٠–هناك علامات تدل على كذبه:

أولاً: أنه أعور والله تبارك وتعالى ليس بأعور.

عن ابن عمر. قال: قال ﷺ (... وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ لَقَدْ أَنْذَرَهُ نُوحٌ قَوْمَهُ وَلَكِنِّي سَأَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلاً لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَعْوَرُ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ) متفق عليه.

ثانياً: أنه يرى في الدنيا، والله لا يرى في الدنيا.

كما في الحديث (واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا) رواه مسلم.

قال ابن حجر: وفيه تنبيه على أن دعواه الربوبية كذب، لأن رؤية الله تعالى مقيدة بالموت، والدجال يدعي أنه الله ويراه الناس مع ذلك.

ثالثاً: مكتوب عليه (كافر) يقرؤها كل مسلم.

عن أَنَس قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الْكَذَّابَ أَلاَ إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر) متفق عليه.

وفي لفظ (الدَّجَّالُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ». ثُمَّ تَهَجَّاهَا ك ف ر «يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُسْلِم).

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ». قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ « يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ » قَالَ قُلْتُ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيّ الْقَيُّومُ. قَالَ فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ : وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ) .

==========

(**أَبَا الْمُنْذِرِ)** كنية أبي بن كعب ، وفي مناداته بكنيته تكريمٌ وتبجيلٌ وتلطفٌ معه من النبي ﷺ ؛ حيث كان أُبيّ من أحفظ الصحابة لكتاب الله وأقرئهم له .

(**أَتَدْرِى أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ**) أي: أعظم أجراً وأشمل معنى.

ومعنى (مَعَكَ) أي مما تحفظه وتستحضره في صدرك من كتاب الله، و(أَعْظَمُ) أي أعظم شأنًا وأكثر أجرًا وثوابًا لقارئها .

(**قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**) فوض أُبيّ رضي الله عنه العلم أولاً إلى الله ورسوله تأدبًا وتوقيرًا بين يدي رسول الله ﷺ، ورغبةً في أن يتلقى الجواب والبيان منه مباشرة .

(**قَالَ : يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ**) كرر النبي ﷺ السؤال ليمتحن فقهه ودرايته، وليستخرج ما استقر في صدره من الفهم والتدبر لآيات القرآن .

(**قُلْتُ: اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**) أي: آية الكرسي، وسميت بذلك لذكر الكرسي فيها، وهو موضع القدمين كما قاله ابن عباس.

(**قَالَ فَضَرَبَ فِي صَدْرِي**) ضربة خفيفة على الصدر من النبي ﷺ فيها إيناس وتلطف، وإقرار بصحة ما ذهب إليه، ودعاء بالثبات وتمكين نور العلم في قلبه .

(وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ) أي: هنيئاً لك العلم أبا المنذر، هنأه الرسول ﷺ حيث علم واستنبط أعظم آية الكرسي.

١ – الحديث دليل على فضل آية الكرسي، وأنها أعظم آية في كتاب الله.

٢–والسبب في ذلك:

لأنها تظمنت من أوصاف الإلهية وصفات الرب سبحانه وتعالى ما لم تتضمنه آية أخرى.

فآية الكرسي عظمتها راجعة إلى عظمة ما اشتملت عليه من توحيد الله وتعظيمه؛ فهي تبدأ بالتوحيد:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) ثم تثبت له كمال الحياة والقيومية (الْحَيُّ الْقَيُّومُ) ثم تذكر كمال ملكه وعلمه وقدرته، وتنزهه عن العجز والنقص.

ولهذا كانت أعظم آية في كتاب الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وليس في القرآن آية واحدة تضمنت ما تضمنته آية الكرسي، وإنما ذكر الله في أول سورة الحديد وآخر سورة الحشر عدة آيات لا آية واحدة.

وقال النووي : قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّمَا تَمَيَّزَتْ آيَةُ الْكُرْسِيِّ بِكَوْنِهَا أَعْظَمَ لِمَا جَمَعَتْ مِنْ أُصُولِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ والوحدانية وَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْمُلْكِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ، وَهَذِهِ السَّبْعَةُ أُصُولُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ .

٢ – هناك مواضع تقرأ فيها آية الكرسي:

أولاً: عند النوم.

لقوله ﷺ (... اقرأ آية الكرسي قبل النوم فإنه لا يزال عليك من الله حافظاً).

ثانياً: بعد الصلاة.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ (مَنْ قَرَأَ آيَةَ اَلْكُرْسِيِّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ اَلْجَنَّةِ إِلَّا اَلْمَوْتُ). رَوَاهُ النَّسَائِيُّ، وَصَحَّحَهُ اِبْنُ حِبَّانَ

ثالثاً: في أذكار الصباح والمساء.

٣ – الحديث دليل على أن القرآن بعضه أفضل من بعض.

٤ – فضل أبي بن كعب ورسوخه في العلم ، فقد عرف الإجابة الصحيحة، ولذلك قال له النبي ﷺ: «ليهنك العلم» أي ليكن هذا العلم هنيئًا مباركًا لك.

٥–قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله: فقد جرّب المجرّبون الذين لا يحصون كثرة، أنّ لآية الكرسي من التأثير في دفع الشياطين، وإبطال أحوالهم مالا ينضبط من كثرته وقوته، فإنّ لها تأثيراً عظيماً، في دفع الشيطان عن نفس الإنسان، وعن المصروع وعن من تُعينه الشياطين .

٦–جواز اختبار العالم أو الطالب في العلم؛ فقد سأل النبي ﷺ أُبيًّا ليظهر علمه ويقرره.

٧–حسن تعليم النبي ﷺ لأصحابه؛ فقد بدأ بالسؤال، ثم أقرّ الإجابة الصحيحة، وهذا من الأساليب النافعة في التعليم.

٨–تواضع الصحابة ﷺ؛ فعندما سُئل أُبيّ قال أولًا : الله ورسوله أعلم ، ثم أجاب عندما تبيّن له السؤال .

٩–جواز إظهار الفرح بالعلم والثناء على صاحبه؛ فقوله ﷺ: «ليهنك العلم أبا المنذر» ثناء على أُبيّ وإشادة بإصابته للحق.

١٠-جواز وضع اليد على صدر المتعلم أو التربيت عليه إذا كان ذلك مناسبًا ولا يترتب عليه محذور؛ فقد ضرب النبي ﷺ في صدر أُبيّ ﷺ.

١١-أن العلم النافع نعمة تستحق الحمد والفرح؛ لأن النبي ﷺ هنّأ أُبيًّا بهذا العلم.

١٢-منزلة التوحيد في القرآن، فأعظم آية في كتاب الله هي الآية التي اشتملت على أعظم أصول التوحيد وأسماء الله وصفاته.

١٣-فضل العلم بالله تعالى، فمعرفة أسماء الله وصفاته وتدبر معانيها من أشرف العلوم؛ لأن أُبيًّا ﷺ هُنِّئ على هذا العلم.

١٤-أن شرف العلم يكون بشرف المعلوم، وكلما كان العلم متعلقًا بالله تعالى وأسمائه وصفاته كان أعظم وأشرف.

١٥-أهمية معرفة مراتب الفضائل الشرعية؛ فقد بيّن النبي ﷺ أن آية الكرسي أعظم آية، وهذا من معرفة مراتب النصوص والأعمال.

١٦-أن الفضائل الشرعية تُعرف بالوحي؛ فلا يُحكم بأن سورة أو آية أو عبادة أفضل من غيرها بمجرد الرأي، وإنما بالدليل.

١٧-أن أعظم ما ينبغي أن يعتني به المسلم هو معرفة ربه؛ فالآية الأعظم تدور معانيها حول الله سبحانه: ألوهيته، وحياته، وقيوميته، وملكه، وعلمه، وقدرته.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ («أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ» قَالُوا وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ قَالَ : «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ») .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ («احْشِدُوا فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ» فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ثُمَّ دَخَلَ فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ إِنِّي أُرَى هَذَا خَبَرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَذَاكَ الَّذِى أَدْخَلَهُ. ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ أَلاَ إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ) .

عَنْ عَائِشَةَ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلاً عَلَى سَرِيَّةٍ وَكَانَ يَقْرَأُ لأَصْحَابِهِ فِي صَلاَتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فَلَمَّا رَجَعُوا ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ «سَلُوهُ لأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ» فَسَأَلُوهُ فَقَالَ لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ) .

[خ : ٧٣٧٥] .

==========

(أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلاً) لا يعرف اسمه، قال ابن حجر: وأما من فسره بأنه قتادة بن النعمان فأبعد جداً، فإن في قصة قتادة أنه كان يقرؤها في الليل يرددها، ليس فيه أنه أمّ بها، لا في سفر ولا في حضر، ولا أنه سئل عن ذلك، ولا بُشّر.

(عَلَى سَرِيَّةٍ) السرية: الطائفة التي يبعثها الإمام من الجيش يبلغ أقصاها ٤٠، سمو بذلك: قيل: لكونهم خلاصة العسكر وخياره، مأخوذ من التسري وهو النفيس. وقيل: لأنهم يبعثون سرّاً وخفية.

(وَكَانَ يَقْرَأُ لأَصْحَابِهِ فِي صَلاَتِهِمْ) أي: حين يصلي بهم إماماً.

(فَيَخْتِمُ بِـ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) اختلف في معنى ذلك على معنيين وسيأتي شرحها إن شاء الله .

(فَلَمَّا رَجَعُوا) من غزوهم.

(ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ) أي: ما يفعله أميرهم من ختم قراءته بهذه السورة.

(فَقَالَ لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ) أي: إنما أفعل ذلك لأنها صفة الرحمن عز وجل.

قال في "الفتح": قال ابن التين: إنما قال: إنها صفة الرحمن، لأن فيها أسماءه وصفاته، وأسماؤه مشتقة من صفاته، وقال غيره: يحتمل أن يكون الصحابي المذكور، قال ذلك مستندًا لشيء سمعه من النبي ﷺ إما بطريق النصوصية، وإما بطريق الاستنباط.

وقد أخرج البيهقي في "كتاب الأسماء والصفات" بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما (أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: صف لنا ربك الذي تعبده، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) إلى آخرها، فقال: هذه صفة ربي عز وجل.

وعن أبي بن كعب ﷺ، قال: قال المشركون للنبي ﷺ : انسب لنا ربك، فنزلت "سورة الإخلاص" ... الحديث.

وهو عند ابن خزيمة في "كتاب التوحيد" وصححه الحاكم ، وفيه: أنه ليس شيء يولد إلا يموت، وليس شيء يموت إلا يورث، والله لا يموت، ولا يورث، ولم يكن له شبه ولا عدل، وليس كمثله شيء.

وقال ابن دقيق العيد رحمه الله: قوله (لأنها صفة الرحمن) يحتمل أن يكون مراده أن فيها ذكر صفة الرحمن، كما لو ذكر وصف، فعبر عن الذكر بأنه الوصف، وإن لم يكن نفس الوصف. ويحتمل غير ذلك، إلا أنه لا يختص ذلك بهذه السورة، لكن لعل تخصيصها بذلك لأنه ليس فيها إلا صفات الله سبحانه وتعالى، فاختصت بذلك دون غيرها.

(فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا) أي: أقرأ هذه السورة التي هي صفة الرحمن عز وجل.

(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّه) قال ابن دقيق العيد رحمه الله: يحتمل أن يكون سبب محبة الله له محبته لهذه السورة، ويحتمل: أن يكون لما دل عليه كلامه؛ لأن محبته لذكر صفات الرب دالة على صحة اعتقاده .

١-الحديث دليل على فضل سورة : قل هو الله أحد ، وأنها تعدل ثلث القرآن .

قال ابن عثيمين : (تعدل ثلث القرآن) يعني: أجرها كأجر ثلث القرآن، لكنها لا تجزئ عن القرآن.

قال ابن تيمية -رحمه الله- الأحاديث المأثورة عن النبي ﷺ في فضل (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وأنها تعدل ثلث القرآن- من أصح الأحاديث وأشهرها، حتى قال طائفة من الحفاظ، كالدارقطني: لم يصح عن النبي ﷺ في فضل سورة من القرآن أكثر مما صحّ عنه في فضل (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) .

٢-فضائلها :

أولاً : أن قراءتها تعدل ثلث القرآن .

كما في أحاديث الباب .

ثانياً : محبتها سبب لحب الله .

لحديث الباب (... أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ) .

ثالثاً : أنَّها صفة الرحمن.

لحديث الباب (فَسَأَلُوهُ فَقَالَ لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا ...) .

رابعاً : أن حبها يوجب دخول الجنة.

عن أَنَس ﷺ قال (كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلاَةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ بِـ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا إِنَّكَ تَفْتَتِحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ ثُمَّ لاَ تَرَى أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِأُخْرَى فَإِمَّا أَنْ تَقْرَأَ بِهَا وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا وَتَقْرَأَ بِأُخْرَى فَقَالَ مَا أَنَا بِتَارِكِهَا إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ وَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ فَلَمَّا أَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ

الْخَبَرَ فَقَالَ يَا فُلاَنُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ وَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّهَا فَقَالَ حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ) رواه البخاري.

وخرّجه الترمذي: عن أنس (أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أحبّ هذه السورة: قل هو الله أحد، فَقَالَ: إِنَّ حبك إياها أدخلك الجنة).

خامساً : أن الدعاء بها مستجاب.

عن بريدة. (أن النبي ﷺ سمع رجلاً يصلي يدعو يقول: اللهم إني أسالك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت الأحد الصمد الَّذِي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، قال: والذي نفسي بيده، لقد سأله باسمه الأعظم، الَّذِي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب) رواه أبو داود .

سادساً : أنها تضمنت الرد على اليهود والنصارى والمشركين وهي حجة الله على خلقه .

حتى قال السيوطي في «الإكليل» فيها الرد على اليهود والنصارى والمجوس والمشركين والمجسمة والمشبهة والحلولية والاتحادية وجميع الأديان الباطلة .

ويدل على هذا ما رواه البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ عن ربّه (كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّل الخَلْقِ بِأَهْوَن عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ الله وَلَدًا وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ) .

٣-معنى قوله (... **تعدل ثلث القرآن**) .

في أحاديث الباب أنها تعدل ثلث القرآن .لحديث الباب .

وجاء عند البخاري : عَنْ أَبِي سَعِيدٍ (أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يُرَدِّدُهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا [أي يراها قليلة] فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ) .

-اختلف في معنى (ثلث القرآن) على أقوال :

قال ابن بطال -رحمه الله- اختلف العلماء في معنى قوله: إنها تعدل ثلث القرآن .

فقال أبو الحسن بن القابسي: لعل الرجل الذي بات يردد (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) كانت منتهى حفظه، فجاء يقلّل عمله، فقال له النبي ﷺ إنها لتعدل ثلث القرآن؛ ترغيبًا له في عمل الخير وإن قلَّ، ولله تعالى أن يجازي عبدًا على يسير بأفضل مما يجازي آخر على كثير.

وقال غيره : أنَّ الله جعل القرآن ثلاثة أجزاء:

أحدها: القصص والعبر والأمثال، والثاني: الأمر والنهي والثواب والعقاب ، والثالث: التوحيد والإخلاص، وتضمنت هذه السورة صفة توحيده تعالى وتنزيهه عن الصاحبة والوالد والولد، فجعل لقارئها من الثواب كثواب من قرأ ثلث القرآن.

قال ابن عبد البر -رحمه الله- متعقبًا لمن قال بأنها (خاص) بصاحب الواقعة: وهذا تأويل فيه بُعد عن ظاهر الحديث. والله أعلم

وقال ابن الجوزي- رحمه الله- وفي معنى كونها ثلث القرآن ثلاثة أقوال:

قال أبو العباس بن شريح: قول رسول الله ﷺ : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، تعدل ثلث القرآن؟ قال: إن القرآن أنزل أثلاثًا: فثلث أحكام، وثلث وعد ووعيد، وثلث أسماء وصفات، وقد جُمع في (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أحد الأثلاث وهو الصفات، فقيل: إنها ثلث القرآن.

وقال ابن تيمية –رحمه الله– وأما توجيه ذلك (الحديث): فقد قالت طائفة من أهل العلم: إن القرآن باعتبار معانيه ثلاثة أثلاث: ثلث توحيد، وثلث قصص، وثلث أمر ونهي. و(قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) هي صفة الرحمن ونسَبه، وهي متضمنة ثلث القرآن؛ وذلك لأن القرآن كلام الله تعالى، والكلام: إما إنشاء وإما إخبار، فالإنشاء هو: الأمر والنهي وما يتبع ذلك، كالإباحة ونحوها، وهو الإحكام.

والإخبار: إما إخبار عن الخالق، وإما إخبار عن المخلوق، فالإخبار عن الخالق: هو التوحيد وما يتضمنه من أسماء الله وصفاته.

والإخبار عن المخلوق: هو القصص، وهو الخبر عما كان وعما يكون، ويدخل فيه الخبر عن الأنبياء وأممهم ومَن كذَّبهم، والإخبار عن الجنة والنار والثواب والعقاب.

قالوا: فبهذا الاعتبار تكون (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن؛ لما فيها من التوحيد الذي هو ثلث معاني القرآن. (الفتاوى)

وقال الصنعاني– رحمه الله– الذي يظهر لي أنه ثُلُثٌ في أجر قراءتها لِسِرٍّ يعلمه الله.

وقال الشوكاني –رحمه الله– قد عُلل كونها تعدل ثلث القرآن بعلل ضعيفة واهية، والأحسن أن يقال: ذلك لسرٍّ لم نطلع عليه، وليس لنا الكشف عن وجهه .

٤–هذه السورة تسمى سورة الإخلاص وتسمى سورة التوحيد .

قال ابن القيم : وهذه السورة أخلصت التوحيد .

وقال الفيروزآبادي : سُمِّيَتْ سورة الإخلاص؛ لأنها خالص التوحيد، وسبب خلاص أهله". أ.هـ.

وقال العلامة الشيخ العثيمين : وسُمِّيَت بالإخلاص؛ لأن الله أخلصها لنفسه، ليس فيها شيء إلا التحدث عن صفات الله، ولأنها تخلِّص قارئها من الشرك والتعطيل . انتهى

فقد تضمنت هذه السورة العظيمة إثبات وحدانية الله، وأنه لا شريك له، فهو أحدٌ في ألوهيته، أحد في ربوبيته، أحد في أسمائه وصفاته، وأنه هو المقصود وحده في قضاء الحوائج، الصمد الذي تصمُدُ إليه جميع المخلوقات، وأنه لم يلد ولم يُولَد (مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا) ولا مثيل له ولا نظير (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) وكل هذا يقتضي الإخلاص في عبادة الله وحده، أو الاتجاه إليه وحده.

وهذه السورة اشتملت على أهم أركان الدين والشريعة؛ وهو توحيد الله، الذي خُلِقَ الخَلْقُ، وبُعث الرسل، وأُنزل الكتب، وقامت راية الجهاد لأجله، والذي هو أول الواجبات، وأعظم الحقوق؛ إنه توحيد الله الذي تضمنته هذه السورة العظيمة.

٥–قال محمود السبكي –رحمه الله– وفي الحديث: دلاله على مزيد فضل (قل هو الله أحد) لما تضمَّنه من تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به؛ لأنها مع قِصَرها جامعة لصفات الله الأحدية، ومتضمِّنه لنفي ما لا يليق بجلاله من الوالد والولد والنظير، فليس هناك من يمنعه كالوالد، ولا من يساويه كالكُفْءِ ولا من يعينه كالولد، وهذه أصول مجامع التوحيد الاعتقادية.

٦–قوله في حديث عائشة (**وَكَانَ يَقْرَأُ لأَصْحَابِهِ فِي صَلاَتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)** .

اختلف في معنى قوله (فيختم بـ قل هو الله أحد) على معنيين :

المعنى الأول: أنه يختم قراءة كل ركعة.

المعنى الثاني: أنه يختم قراءة الصلاة عموماً.

قال ابن دقيق العيد رحمه الله: هذا يدلّ على أنه كان يقرأ بغيرها، ثم يقرؤها في كل ركعة، وهذا هو الظاهر.

ويحتمل أن يكون المراد أنه يختم بها آخر قراءته، فيختص بالركعة الأخيرة، وعلى الأول فيؤخذ منه جواز الجمع بين سورتين في ركعة. (إحكام الأحكام)

فعلى الاحتمال الأول إذا كانت الصلاة رباعية، فإنه يقرأ قل هو الله أحد أربع مرات، وعلى الاحتمال الثاني يقرؤها مرة واحدة .

فعلى القول الأول: الحديث دليل على جواز جمع سورتين فأكثر في الركعة الواحدة.

ومما يدل لذلك أيضاً:

أ- حديث حذيفة قَالَ (صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ. ثُمَّ مَضَى فَقُلْتُ يُصَلِّى بِهَا فِي رَكْعَةٍ فَمَضَى فَقُلْتُ يَرْكَعُ بِهَا. ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ) رواه مسلم.

ب- وحديث أَنَس ﷺ قال (كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلاَةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ بِـ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا إِنَّكَ تَفْتَتِحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ ثُمَّ لاَ تَرَى أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِأُخْرَى فَإِمَّا أَنْ تَقْرَأَ بِهَا وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا وَتَقْرَأَ بِأُخْرَى فَقَالَ مَا أَنَا بِتَارِكِهَا إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ وَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ فَلَمَّا أَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ فَقَالَ يَا فُلاَنُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ وَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّهَا فَقَالَ حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ) رواه البخاري.

وما جاز في النفل جاز في الفرض إلا بدليل يخصص.

٧- أن الله يعطي على العمل القليل ما لا يعطيه على العمل الكثير.

٨-دليل لأهل السنة على إثبات صفات الله -عز وجل-، وأنه مذهب الصحابة ﷺ، وقد أقرّهم النبي ﷺ على ذلك.

٩-**قال الشيخ الطاهر ابن عاشور** -رحمه الله- الملفت للنظر أنَّ السورة التي سميت بالإخلاص لا تحوي كلمة الإخلاص بحد ذاتها، على عكس عامة السور التي تحمل عنوانها الحَرفي في تضاعيفها، وهذا من أسرار (الإخلاص) التي جمعت فأوْعَتْ من صفات الله -عزَّ وجلَّ-.

١٠- قوله: (تعدل ثلث القرآن) أي من قرأها فله أجر من قرأ ثلث القرآن، وليس معناه أنها تغني عن قراءة القرآن.

فقراءة (قل هو الله أحد) لها جزاء قراءة ثلث القرآن، لا أنها تجزئ عن قراءة ثلث القرآن.

فمن نذر -مثلاً- أن يقرأ ثلث القرآن، فلا يجزئه قراءة (قل هو الله أحد) لأنها تعدل ثلث القرآن في الجزاء والثواب لا في الإجزاء والإغناء عن قراءة ثلث القرآن.

فائدة :

القصة في هذا الحديث -حديث عائشة- غير القصة التي جاءت في حديث أنس عند البخاري.

عن أَنَس ﷺ قال (كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلاَةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ بِـ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ ...).

قال ابن حجر: وعلى هذا فالذي كان يؤم في مسجد قباء غير أمير السرية ويدل على تغايرهما:

أن في حديث أنس أنه كان يبدأ بقل هو الله أحد وأمير السرية كان يختم بها.

وفي هذا أنه كان يصنع ذلك في كل ركعة ولم يصرح بذلك في قصة الآخر.

وفي هذا أن النبي ﷺ سأله، وأمير السرية أمر أصحابه أن يسألوه.

وفي هذا إنه قال إنه يحبها فبشره بالجنة، وأمير السرية قال إنها صفة الرحمن فبشره بان الله يحبه .

عنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) وَ(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) .

==========

(عنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ) الجهني .

(أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ) الرؤية المراد بها هنا العلم، والاستفهام تقريريّ، حاصله إثبات ما بعد النفي، أي اعْلَمْ آيات .

(لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ) قال الطيبيُّ: قوله (لم يُرَ مثلهنّ) أي لم تكن آيات سورة كلّهنّ تعويذات للقارئ من شرّ الأشرار غير هاتين السورتين.

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) أي : سورة الفلق .

(وَ(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) أي : سورة الناس .

١-فضل هاتين السورتين (سورة الفلق وسورة الناس) .

والمعوذتان هما سورة الفلق وسورة الناس، آخر سورتين في المصحف.

سُمّيتا بذلك لأن كلتيهما تبدأن بـ «قل أعوذ» أي ألتجئ وأعتصم بالله من الشرور ، وهما من آخر ما نزل على النبي ﷺ.

ففيهما ذِكْرُ التَّعوُّذُ والالتِجاءِ وطَلَبِ الحمايةِ مِن اللهِ ربِّ الخَلْقِ وربِّ النَّاسِ، وقد اسْتعاذَ بهما النَّبيُّ ﷺ ورَقَى نَفْسَه.

الفرق بين سورة الفلق وسورة الناس :

سورة الفلق تتعوذ من الشرور الخارجية: شر المخلوقات عمومًا، وشر الظلام، وشر السحر، وشر الحسد.

أما سورة الناس فتتعوذ من الشر الداخلي الخفي: وسواس الشيطان في صدر الإنسان سواء أكان من الجن أم من الناس.

٢-فضل التعوذ بهاتين السورتين :

عند الخوف أو عدو .

عن عقبة بن عامر قال (بينا أنا أسير مع رسول الله ﷺ بين (الجحْفَةِ) و(الآبْوَاءِ) إذْ غشيتنا ريحٌ وظلمةٌ شديدةٌ، فجعل رسول الله ﷺ يتعوَذ بـ (أعوذ بربِّ الفلق) و(أعوذ برب الناس) ويقول يا عُقْبَة! تعوذْ بهما؛ فما تعوّذ متعوّذٌ بمثلهما) رواه أبو داود .

قال ابن عثيمين: لم ير مثلهن في الاستعاذة بهن.. ولذا ينبغي أن يقرأ بهما حينما يحس بعدو ونحوه، فإنه ما تعوذ أحد بمثلهما أبداً.

وجاء عند أحمد في مسنده : عن عُقبة بن عامر ﷺ قال (اتَّبَعْتُ رسولَ الله ﷺ وهو راكبٌ، فوضعتُ يدي على قَدَمِه، فقلتُ: أَقْرِئْنِي يا رسول الله سورة هود، وسورة يوسف، فقال: «لن تقرأ شيئًا أَبْلَغَ عند الله من (قُل أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ) و(قُل أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) .

قوله (لن تقرأ شيئًا أَبْلَغَ عند الله منهما ...) أي: أتمَّ وأعْظَمَ في باب التعوُّذ لدفع السوء وغيره .

والمراد: التحريضُ على التعوُّذ بهاتَين السورتَين.

قال القاري -رحمه الله- والمعنى: ليس تعويذٌ مثلهما، بل هما أفضل التعاويذ، وفي رواية له أيضًا أنه ﷺ قال له: اقْرَأْ بهما كلَّما نمْتَ، وكلَّما قُمْتَ .

التعوذ بهما من الجن والعين .

وعن أبي سعيد قال (كان رسول الله ﷺ يتعوَّذ من الجانِّ وعين الإنسان، حتى نزلت المعوِّذتان، فلما نزلتا أخذ بهما، وترك ما سواهما) رواه الترمذي .

قال الطيبي : كان رسول الله ﷺ يتعوَّذ من عين الجان، وعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان، أخذ بهما وترك ما سواهما، ولما سُحِرَ استُشفِيَ بهما.

قال ابن القيم : من أعظم ما يُعالج به السحر والعين قراءةُ المعوذتين؛ فإن فيهما الاستعاذة من كل شر بوجه عام، ثم من الشرور الخاصة كالسحر والحسد .

التعوذ بهما عند المرض .

وعَنْ عَائِشَةَ (أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا) متفق عليه .

التعوذ بهما عند النوم .

وعنها (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} وَ{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} وَ{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ) متفق عليه .

التعوذ بهما بعد الصلاة .

وعن عقبة بن نافع قال (أمرني رسول الله ﷺ أنْ أقرأ بالمعوِّذات دُبُر كُلِّ صلاة) رواه أبو داود .

قال ابن حجر رحمه الله: المراد بأنه كان (يقرأ بالمعوذات) أي السور الثلاث، وذكر سورة الإخلاص معهما تغليبا لما اشتملت عليه من صفة الرب، وإن لم يصرح فيها بلفظ التعويذ ... وقد أخرج أصحاب السنن الثلاثة أحمد وابن خزيمة وابن حبان من حديث عقبة بن عامر قال (قال لي رسول الله ﷺ: قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، تعوذ بهن، فإنه لم يتعوذ بمثلهن، اقرأ المعوذات دبر كل صلاة) فذكرهن .

التعوذ بهما في الصباح والمساء .

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ خُبَيْب قَالَ (خَرَجْنَا فِي لَيْلَةِ مَطَرٍ، وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ، نَطْلُبُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ لَنَا، فَأَدْرَكْنَاهُ، فَقَالَ: أَصَلَّيْتُمْ؟ فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ: قُلْ فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: قُلْ فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: قُلْ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَقُولُ؟ قَالَ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي، وَحِينَ تُصْبِحُ، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) رواه أبو داود .

٣-**قال ابن القيم** -رحمه الله- وفي المعوِّذتين: الاستعاذةُ مِن كل مكروه جملةً وتفصيلاً، فإنَّ الاستعاذَة مِن شَرِّ ما خلق تَعُمُّ كُلَّ شَرٍّ يُستعاذ منه، سواءً أكان في الأجسام أو الأرواح، والاستعاذَةَ مِن شَرِّ الغاسق وهو اللَّيل، وآيتِهِ وهو القمر إذا غاب، تتضمن الاستعاذةَ مِن شَرِّ ما ينتشِرُ فيه من الأرواح الخبيثة التي كان نورُ النهار يحولُ بينها وبين الانتشار، فلما أظلم الليل عليها، وغاب القمرُ، انتشرت وعاثت.

والاستعاذة مِن شَرِّ النفاثات في العُقد تتضمن الاستعاذة من شَرِّ السَّواحِرِ وسِحْرِهِنَّ.

والاستعاذة مِن شَرِّ الحاسد تتضمن الاستعاذَة مِن النفوس الخبيثة المؤذية بحسدها ونظرها.

والسورةُ الثانية: تتضمن الاستعاذة مِن شَرِّ شياطين الإنس والجن، فقد جمَعَت السورتان الاستعاذة من كُلِّ شَرٍّ، ولهما شأنٌ عظيم في الاحتراس والتحصُّن من الشرور قبل وقوعها؛ ولهذا أوصى النبي ﷺ عُقبةَ بن عامر بقراءتهما عَقِبَ كُلِّ صلاةٍ، ذكره الترمذي في جامعه، وفي هذا سِرٌّ عظيم في استدفاع الشرورِ من الصلاة إلى الصلاة.

وقال رحمه الله : ما تَعَوَّذ المتعوِّذون بمثلهما ، وقد ذُكر أنه ﷺ سُحِرَ في إحدى عشرةَ عُقدة، وأنَّ جبريلَ نزل عليه بهما، فجعَلَ كُلَّما قرأ آية منهما انحلَّتْ عُقدة، حتى انحلَّتْ العُقَد كُلُّها، وكأنما أُنْشِطَ من عِقَال. .

وقال ابن القيم –رحمه الله– أيضًا : قراءة هاتين السورتين فإن لهما تأثيرًا عجيبًا...؛ ولهذا قال النبي ﷺ (ما تَعوَّذ المتعوِّذون بمثلهما) وقد كان يعوذ بهما كل ليلة عند النوم، وأَمَر عُقبة أن يقرأ بهما دُبُر كُلّ صلاة، وتقدَّم قوله: إنّ مَن قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثًا حين يمسي، وثلاثًا حين يصبح كَفَتْهُ مِن كُل شيء .

٤– قوله (فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا) لا يدل على أن النبي ﷺ ترك كل ما كان يتعوذ به من التعوذات الشرعية الدالة على التوحيد وحسن الظن بالله والثقة به؛ اكتفاء بالمعوذتين ... ولكنه محمول على أن التعوذ بالمعوذتين أولى من غيرهما .

فلما كانتا أفضل ما تعوذ به المتعوذون كانتا أولى من غيرهما، لأنهما من القرآن، والقرآن أفضل الذكر .

قال الحافظ رحمه الله في حديث الترجمة: وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى الْمَنْعِ مِنَ التَّعَوُّذِ بِغَيْرِ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ، بَلْ يَدُلُّ عَلَى الْأَوْلَوِيَّةِ وَلَا سِيَّمَا مَعَ ثُبُوتِ التَّعَوُّذِ بِغَيْرِهِمَا، وَإِنَّمَا اجْتَزَأَ بِهِمَا لِمَا اشْتَمَلَتَا عَلَيْهِ مِنْ جَوَامِعِ الِاسْتِعَاذَةِ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى جَوَازِ الرُّقَى عِنْدَ اجْتِمَاعِ ثَلَاثَةِ شُرُوطٍ: أَنْ يَكُونَ بِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَبِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ أَوْ بِمَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ مِنْ غَيْرِهِ، وَأَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّ الرُّقْيَةَ لَا تُؤَثِّرُ بِذَاتِهَا، بَلْ بِذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى. (فتح الباري)

وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله : (فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا) يدل على أنهما أولى من غيرهما في التعوذ من الجان وعين الإنسان خاصة ، لا في مطلق الاستعاذة .

قال الشوكاني رحمه الله : فِي الحَدِيث دَلِيل على أن الِاسْتِعَاذَة بِهَاتَيْنِ السورتين : أولى من الِاسْتِعَاذَة بِغَيْرِهِمَا، لَكِن لَا فِي مُطلق الِاسْتِعَاذَة ، بل فِي التَّعَوُّذ من الجان وَعين الْإِنْسَان .

ومما يدل أيضا على أنه ﷺ لم يترك الاستعاذات الشرعية ، اكتفاء بالمعوذتين : كونه ﷺ كان يعوذ الحسن والحسين بغيرهما.

فروى البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَقُولُ : إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ) .

٥–**قال ابن بطال**–رحمه الله– في الاسترقاءِ بالمعوذاتِ استعاذةٌ بالله تعالى مِن شَرِّ كُلِّ مِن خَلق ومِن شَرِّ النفاثات في السِّحر ومِنْ شَرِّ الحاسد ومِن شَرِّ الشيطان ووسوسته، وهذه جوامع من الدّعاء تَعُمُّ أكثر المكروهات؛ ولذلك كان عليه السلام يسترقي بهما، وهذا الحديث أَصل ألا يُسترقى إلا بكتاب الله وأسمائه وصفاته .

٦–قراءة المعوذتين على حالتين :

الحالة الأولى :

ذكرهما على سبيل الدعاء من غير قصد التلاوة .

ففي هذه الحالة لا بأس بعدم التلفظ بلفظ (قُلْ) لأنه إنما قصد أن يدعو الله بهذا الدعاء ، ولم يقصد قراءة القرآن .

ونحو ذلك ما ذكره العلماء من أن الجنب لا حرج عليه أن يدعو بأدعية القرآن ، لأنه لم يقصد تلاوة القرآن وإنما قصد الدعاء .

سئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : عن حديث الرسول ﷺ الذي ما معناه: نهيت أن اقرأ القرآن وأنا ساجد فهل هذا النهي يشمل الأدعية الموجودة في القرآن، بمعنى: هل يجوز للمسلم أن يدعو بهذه الأدعية وهو ساجد؟

فأجاب :

قول النبي عليه السلام (ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فأكثروا فيه من الدعاء؛ فقمن أن يستجاب لكم) أخبر النبي ﷺ أنه نهي أن يقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، لا أنه نهي أن يدعو بالقرآن.

ففرق بين الدعاء بالقرآن وبين قراءة القرآن :

فالداعي بالقرآن لم يقصد التلاوة وإنما قصد الدعاء، فلو قال الإنسان في سجوده: ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار لا يقصد بذلك التلاوة لكان هذا جائزاً، ولو قال في سجوده: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب يريد الدعاء لا التلاوة، لم يكن قارئاً للقرآن في السجود، ولهذا كان الجنب لا يقرأ القرآن، لكن لو دعا بدعاءٍ من القرآن كان ذلك جائزا، فلو قال الجنب: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذا هديتنا وهب لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب، لا يريد القراءة وإنما يريد الدعاء فلا حرج عليه.

فيجب أن نعرف الفرق بين قراءة القرآن التي قصد بها التلاوة، وبين الدعاء بما جاء في القرآن، فالأول لا يكون في الركوع والسجود، والثاني يكون في السجود، أما الركوع فالأفضل فيه أن يكرر الإنسان ما فيه تعظيم الرب جل وعلا. انتهى

الحالة الثانية :

أن تقرأ المعوذات على سبيل التلاوة :

ففي هذه الحال لا بد من التقيد بجميع ألفاظ السورة من غير زيادة ولا نقصان.

وهذا هو المطلوب في كل حال رُغّب فيه بقراءة المعوذات ، فالقراءة تقتضي قراءة السورة وتلاوتها، وليس مجرد التعوذ بمحتواها، لأن مجرد التعوذ لا يسمى قراءة.

ويظهر هذا بوضوح من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها : (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وَ(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ) وَ(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ) رواه البخاري .

فالنبي ﷺ قرأ لفظة (قُلْ) ولم يتركها بحجة أن التعوذ يحصل بدونها؛ لأن الترغيب في التعوذ بقراءة هذه السور، هو لفضلها كلها.

٧-حديث الباب يشير إلى نزول المعوذتين في المدينة.

قال عقبة : قال ﷺ (أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ ...) .

وعقبة بن عامر رضي الله عنه كانت صحبته للنبي ﷺ في المدينة.

وأن نزولهما كان عقب حادثة السحر.

فروى عبد بن حميد "المنتخب" قال: حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، حدثنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ حَيَّانَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ (سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ: فَاشْتَكَى، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَنَزَلَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَقَالَ: (إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، وَالسِّحْرُ فِي بِئْرِ فُلَانٍ) قَالَ: فَأَرْسَلَ عَلِيًّا فَجَاءَ بِهِ، قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَحُلَّ الْعُقَدَ، وَتَقْرَأَ آيَةً، فَجَعَلَ يَقْرَأُ، وَيَحُلُّ، حَتَّى قَامَ النَّبِيُّ ﷺ كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ، قَالَ: فَمَا ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِذَلِكَ الْيَهُودِيِّ شَيْئًا مِمَّا صَنَعَ بِهِ، قَالَ: وَلَا أَرَاهُ فِي وَجْهِهِ).

وقال الحافظ ابن حجر: قوله: (وفي ذلك نزلت المعوذتان). انتهى

وهذا ذكره الثعلبي في "تفسيره" من حديث ابن عباس تعليقاً، ومن حديث عائشة أيضاً تعليقاً.
وطريق عائشة صحيح؛ أخرجه سفيان بن عيينة في "تفسيره" رواية أبي عبيد الله عنه، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، فذكر الحديث، وفيه: (ونزلت: قل أعوذ برب الفلق). انتهى من "التلخيص الحبير" (٢٦٨٩/٦)
وأما كون عقد السحر كانت فيه إحدى عشرة عقدة، فلم يرد به حديث صحيح.
قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: ذكر السهيلي: أن عقد السحر كانت إحدى عشرة عقدة، فناسب أن يكون عدد المعوذتين إحدى عشرة آية، فانحلت بكل آية عقدة.
قلت: أخرج البيهقي في "الدلائل" معنى ذلك بسند ضعيف، في القصة التي ذكر فيها: (أن النبي ﷺ سحر... وفي آخر الحديث: أنهم وجدوا وترا فيه إحدى عشرة عقدة، وأنزلت سورة الفلق والناس فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة).
وعند ابن سعد بسند منقطع عن ابن عباس: "أن النبي ﷺ بعث علياً وعماراً ، فوجداً طلعة فيها إحدى عشرة عقدة" فذكر نحوه. (التلخيص الحبير)

عن ابن عمر . قال : قال ﷺ (لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ) .

[خ : ٧٥٢٩] .

==========

(لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ) أي: لا حسد محمود في شيء إلا في خصلتين .
والمراد بالحسد في الحديث الغبطة ، وهي : أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها .
١-معنى الحديث : أنه لا أحد يغبط على ما أتاه الله من مال أو غيره إلا في اثنتين فقط:
الأولى: رجل أعطاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار.
الثانية: رجل أعطاه الله مالاً، فهو ينفقه في وجوه الخير.
قال النووي : ومعناه يَنْبَغِي أَنْ لاَ يُغبَطَ أَحَدٌ إِلاَّ عَلَى إِحْدَى هَاتَيْنِ الخَصْلَتَيْنِ.
وقال ابن القيم: فأخبر ﷺ أنه لا ينبغي لأحد أن يحسد أحداً، يعني: حسد غبطة، ويتمنى مثل حاله من غير أن يتمنى زوال نعمة الله عنه إلا في واحدة من هاتين الخصلتين، وهي الإحسان إلى الناس بعلمه أو ماله، وما عدا هذين فلا ينبغي غبطته ولا تمني مثل حاله لقلة منفعة الناس به ... ولا يقوم أمر الناس إلا بهذين الصنفين، ولا يعمر العالم إلا بهما .
وقال ابن حجر : قوله (لا حسد ...) الحسد تمني زوال النعمة عن المنعم عليه أما الحسد المذكور في الحديث فهو الغبطة، وأطلق الحسد عليها مجازاً وهي أن يتمنى أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن يزول عنه، والحرص على هذا يسمى منافسة، فإن كان في الطاعة فهو محمود ومنه (فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) فإن كان في المعصية فهو مذموم وإن كان في الجائزات فهو مباح. (الفتح)
قال النووي : قوله ﷺ (لا حسد إلا في اثنتين) قال العلماء: الحسد قسمان حقيقي ومجازي :
فالحقيقي : تمنى زوال النعمة عن صاحبها، وهذا حرام بإجماع الأمة، مع النصوص الصحيحة .
وأما المجازي : فهو الغبطة، وهو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة، وان كانت طاعة فهي مستحبة، والمراد بالحديث: لا غبطة محبوبة إلا في هاتين الخصلتين وما في معناهما.
وقال ابن القيم: الحسد ثلاث مراتب ثم ذكر الحسد المذموم ثم قال :

والثالث: حسد الغبطة، وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه، فهذا لا بأس به ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون).

وفي الصحيح قال ﷺ (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها، ويعلمها الناس) فهذا حسد غبطة، الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه، وحب خصال الخير، والتشبه بأهلها، والدخول في جملتهم، فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما. انتهى

وقال ابن رجب : وقسم آخر إذا حسد لم يتمنَّ زوال نعمة المحسود، بل يسعى في اكتساب مثل فضائله، ويتمنَّى أنْ يكونَ مثله، فإن كانتِ الفضائلُ دنيويَّةً، فلا خيرَ في ذلك، كما قال الَّذينَ يُريدُونَ الحياةَ الدُّنيا (يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ) وإنْ كانت فضائلَ دينيَّةً، فهو حسن، وقد تمنَّى النَّبيُّ ﷺ الشَّهادة في سبيل الله -عز وجل- وفي الصحيحين عنه ﷺ قال (لا حسدَ إلاَّ في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ مالاً، فهو يُنفقه آناء الليل وآناء النَّهار، ورجلٌ آتاهُ اللهُ القرآن، فهو يقومُ به آناء اللَّيل وآناءَ النَّهار) وهذا هو الغبطة، وسماه حسداً من باب الاستعارة .

وقال ابن كثير : ومضمون هذين الحديثين أن صاحب القرآن في غبطة، وهى حُسْنُ الحال، فينبغي أن يكون شديد الاغتباط بما هو فيه، ويستحب تغبيطه بذلك، يقال: غبطه فيغبطه بكسر الباء غبطًا؛ إذا تمنَّى مثل ما هو فيه من النعمة، وهذا بخلاف الحسد المذموم، وهو تمنِّي زوال نعمة المحسود عنه، سواء حصلت لذلك الحاسد أو لا، وهذا مذموم شرعًا مهلك، وهو أول معاصي إبليس حين حسد آدم ما منحه الله تعالى من الكرامة والاحترام والإعظام.

٢-فالحديث دليل على أنه لا أحد يغبط على ما أتاه الله من مال أو غيره إلا في اثنتين فقط:

الأولى: رجل أعطاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار.

الثانية: رجل أعطاه الله مالاً، فهو ينفقه في وجوه الخير.

قال ابن القيم: فأخبر ﷺ أنه لا ينبغي لأحد أن يحسد أحداً، يعني: حسد غبطة، ويتمنى مثل حاله من غير أن يتمنى زوال نعمة الله عنه إلا في واحدة من هاتين الخصلتين :

وهي الإحسان إلى الناس بعلمه أو ماله، وما عدا هذين فلا ينبغي غبطته ولا تمني مثل حاله لقلة منفعة الناس به.

قال الخطابي : ومعنى الحديث التحريض والترغيب في تعلم العلم والتصدق بالمال .

و**قال السندي** -رحمه الله-: والمراد: أنه لا تنبغي الغبطة في الأمور الخسيسة، وإنما تنبغي في الأمور الجليلة الدقيقة؛ كالجود والعلم مع العمل .

وقال الصنعاني -رحمه الله- (لا حسد) المراد بالحسد هنا: المنافسة، والفرق بين الحسد والمنافسة: أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذي تشاهده من غيرك فتنافسه فيه؛ حتى تلحقه أو تجاوزه؛ فهو من شرف النفس، وعلو الهمة، وكبر القدر، وطلب المعالي، والحسد خُلُقُ نفس ذميمة وضيعة ساقطة، ليس فيها حرص على الخير، ولا همة عليه؛ فلعجزها ودناءتها تحسد من يكسب الخير والمحامد، ويفوز بها دونها، ويتمنى أنه لو فاته كسبها حتى يساويها في عدم الهمة في كسب الخير، ومراد الحديث: لا غبطة إلا في هاتين الخصلتين، فعبّر بالحسد عن الغبطة اتساعًا في ذلك لتقاربهما .

٣-**قال ابن كثير** : قال ﷺ : لا حسد إلا في اثنين ...، فذكر النعمة القاصرة وهو تلاوة القرآن آناء الليل والنهار، والنعمة المتعدية وهي إنفاق المال بالليل والنهار، كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ) .

٤-قوله (**رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**) .

أي : يتلوه يقرؤه، ويعمل به. وآناء الليل والنهار: ساعاتهما، يعني: أنه يلازم ذلك في غالب أوقاتهما.

قال ابن حجر -رحمه الله- والمراد بالقيام به: العمل به مطلقًا أعم من تلاوته داخل الصلاة أو خارجها، ومن تعليمه والحكم والفتوى بمقتضاه؛ فلا تخالُف بين لفظي الحديثين، ولأحمد من حديث يزيد بن الأخنس السلمي: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ويَتَّبِع ما فيه .

٥ - فضل من أعطي القرآن وعلمه ونشره وقام به.

٦ - التحذير ممن أعطي القرآن ولم يقم بحقه.

٧ - في الحديث أن المقصود من العلم هو العمل.

٨ - فضل الغني الذي أعطي مالاً، فهو ينفق منه في وجوه الخير.

٩ - ذم من أعطي مالاً ولم ينفق منه في وجوه الخير.

١٠ - الحث على كسب المال لإنفاقه في وجوه الخير.

١١ - استدل بالحديث من قال: إن الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر.

١٢- الحرص على التنافس في الخيرات والأعمال الصالحات، لأن النبي ﷺ قال: (لا حسد ...) أي لا غبطة.

وقد قال تعالى (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون).

وقال تعالى (لمثل هذا فليعمل العاملون).

وكان الصحابة يتنافسون في أعمال الخير.

١٣-**قال ابن الملقن** -رحمه الله-: أن الغني إذا قام بشرط المال وفعل فيه ما يرضي الله كان أفضل من الفقير.

١٤-**قال ابن القيم** -رحمه الله- فجعل الغنى مع الانفاق بمنزلة القرآن مع القيام به.

عن عمر . قال : قال ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ) .

==========

(**إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ**) أي : القرآن .

- وسمي القرآن كتاباً:

لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ: كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ).

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة: قال تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا، ونقرؤه من هذه الكتب.

(**أَقْوَامًا**) بسبب تمسكهم به .

(**وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**) بسبب تركهم للقرآن وعدم العمل به .

١-في هذا الحديث يبين النبي ﷺ أن الناس بالنسبة للقرآن واتباعه ينقسمون إلى قسمين :

القسم الأول : أن الله يرفعهم بهذا القرآن .

وهم العاملون به المتبعون لما فيه السالكون سبيله .

القسم الثاني : أن الله يضعهم ويخفضهم بهذا القرآن .

وهم الذين تركوه ولم يعملوه به وهجروه .

فمن عمل بالقرآن واتبعه رفعه الله بالدنيا والآخرة .

في الدنيا : يجعل الله لصاحب القرآن الهيبة والمنزلة والتقديم في الإمامة والرياسة وإن كان وضيع النسب أو فقيرًا، كما رُفِع ابن أبزى وغيره من الموالي بحفظهم وعلمهم .

وفي الآخرة : يُرفع في أعلى درجات الجنان كما قال تعالى (يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) .

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- يعني: يشرِّف ويُكرم في الدنيا والآخرة؛ وذلك بسبب الاعتناء به، والعلم به، والعمل بما فيه.

وقال المظهري -رحمه الله- يعني: مَن آمن بالقرآن وعظَّم شأنه وعمل به، يرفع الله درجته في الآخرة، ويرزقه عزة وشرفًا.

وقال ابن الملك -رحمه الله- (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا) أي: بالقرآن درجة أقوام، وهم من آمن به وعمل بمقتضاه.

وقال الملا علي القاري : (يرفع ... أقوامًا) أي: درجة جماعات كثيرة في الدنيا والآخرة بأن يحييهم حياة طيبة في الدنيا، ويجعلهم من الذين أنعم الله عليهم في العقبى ... (ويضع به آخرين) أي: الذين كانوا على خلاف ذلك من مراتب الكاملين إلى أسفل السافلين، قال تعالى (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) فهو ماء للمحبوبين دماء للمحجوبين، وقال -عز وجل- (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا).

٢-قوله (**ويضع به آخرين**) .

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- (ويضع) يعني: يحقر ويصغر في الدنيا والآخرة، وذلك بسبب تركه، والجهل به، وترك العمل به.

وقال المظهري -رحمه الله- ومن لم يؤمن به أو لم يعمل به أو لم يعظِّم شأنه، يذله الله تعالى في الدنيا والآخرة.

وقال ابن الملك -رحمه الله- (ويضع به آخرين) أي: يحط بالقرآن أقوامًا آخرين، وهم مَن أعرض عنه ولم يحفظ وصاياه .

وقال السندي -رحمه الله- (ويضع به) أي: بالإعراض عنه وترك العمل بمقتضاه.

وقال الصنعاني -رحمه الله- (ويضع به آخرين) هم المكذبون به والذين اتخذوه هزوًا ولعبًا.

٣-فصاحب القرآن له منزلة عالية:

في الدنيا .

(إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين) .

وقال ﷺ (خيركم من تعلم القرآن وعلمه).

وفي الآخرة:

قال ﷺ (يقال لقارئ القرآن اقرأ وارتقِ ورتل، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها) رواه أبو داود.

وفي القبر .

لحديث جابر. قَالَ (كَانَ اَلنَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ اَلرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحَدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟ فَيُقَدِّمُهُ فِي اَللَّحْدِ، وَلَمْ يُغَسَّلُوا، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِمْ) رَوَاهُ اَلْبُخَارِي.

قوله (أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ) جاء عند الترمذي (أيهم أكثر حفظاً للقرآن).

ففيه أن الذي يقدم في اللحد أفضلهم وأكثرهم أخذاً للقرآن، يعني يكون إلى جهة القبلة.

وفيه فضيلة ظاهرة لقارئ القرآن.

قال الحافظ: ويلحق به أهل الفقه والزهد وسائر وجوه الفضل.

٤-قال تعالى (وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً) أي: يكون ما أتاك الله يا محمد من النعمة نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقًا وعملا صالحًا وعلمًا نافعًا، يزداد به الكفرة الحاسدون لك ولأمتك (طُغْيَانًا) وهو: المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء (وَكُفْرًا) أي: تكذيباً .

كما قال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) .

وقال تعالى (وَنُنزلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا).

فبعض الناس تزيده الآيات كفراً وطغياناً كما قال تعالى (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ).

وقال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى).

قال قتادة: لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان قضى الله الذي قضى شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً.

لأنهم كلما نزل فيه أمر من الله بشيء أو نهى عن شيء كفروا به، فلم يأتمروا لأمره، ولم ينتهوا عما نهاهم عنه، فزادهم ذلك خساراً إلى ما كانوا فيه قبل ذلك من الخسار، ورجساً إلى رجسهم قبل.

قال ابن القيم: والمقصود: أن المحل القابل هو قلب العبد المتقي المنيب إلى ربه الخائف منه الذي يبتغي رضاه ويهرب من سخطه فإذا هداه الله فكأنه وصل أثر فعله إلى محل قابل فيتأثر به فصار هدى له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود والفعل والقبول وإذا لم يكن المحل قابلاً وصل إليه الهدى فلم يُؤثِّر فيه كما يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء فإنه لا يؤثر فيه شيئاً بل لا يزيده إلا ضعفاً وفساداً إلى فساده كما قال تعالى في السورة التي نزلها (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) وقال: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) .

٥-فيه من الفقه: أن القرآن كما يرفع اللهُ عز وجل بحفظه والعمل به أقوامًا، فكذلك يخفض به آخرين أضاعوه ولم يعملوا به بما أمروا به فيه .

٦-مقياس الرفعة الحقيقي في الإسلام هو التقوى والعلم بكتاب الله، وليس الحسب أو النسب .

٧-القرآن حجة لك أو عليك: القرآن سبب للنجاة والرفعة لمن اتبعه، وشاهد وخزي على من ضيعه وتنكّب طريقه .

٨-أهمية العلم والعمل معًا ، فلا تقتصر الرفعة على مجرد حفظ الحروف، بل تشمل فهم المعاني، وتعلم الأحكام، والعمل بمقتضى التنزيل .

٣-متى يكون الإنسان رفيعاً عظيماً عند الله ؟

كون العبد عظيمًا عند الله إذا كان من أهل طاعته، ومن أبرز تلك الطاعات:

- الإقبال على القرآن تلاوة وحفظًا، وسماعًا وتدبُّرًا:

قال تعالى (إن هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا).

وقال ﷺ (إن الله يَرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضَعُ به آخَرين).

- الحرص على الذِّكر والمداومة عليه:

عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال النبيُّ ﷺ (يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكَرني، فإن ذكَرني في نفسه ذكَرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم ...) رواه البخاري.

وعن أبي هريرة قال (كان رسول الله ﷺ يَسير في طريق مكَّة فمرَّ على جبلٍ يُقال له: جمدان، فقال: سيروا، هذا جُمْدَانُ، سبَق المفرِّدون، قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: الذَّاكرون الله كثيرًا والذَّاكرات) رواه مسلم.

– المواظبة على الصلوات والإكثار من النوافل:

عن ثوبانَ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول (عليك بكثرة السجود؛ فإنك لن تَسجد لله سجدةً إلا رفعَك الله بها درجة، وحطَّ بها عنك خطيئة). رواه مسلم

وعن ربيعة بن كعب قال (كنتُ أبيت مع النبي ﷺ آتيه بوَضوئه وحاجته، فقال: (سلني) فقلت: أسألُك مرافقتَك في الجنة، فقال: أوَ غير ذلك؟ فقلت: هو ذاك، فقال: أعنِّي على نفسك بكثرة السجود).

– ومن أشرف تلك الصلوات صلاة الليل:

وقال تعالى (كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ).

وقال ﷺ (واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزَّه استغناؤه عن الناس).

– طلب العلم والدعوة إلى الله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال تعالى (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ).

قال ابن القيم: فمن طلب العلم ليُحيي به الإسلام فهو من الصدِّيقين، ودرجته بعد درجة النبوة.

وقال سفيان بن عُيينة رحمه الله: أرفعُ الناس منزلةً عند الله مَن كان بين الله وبين عباده، وهم الأنبياء والعلماء.

– التواضع:

قال ﷺ (وما تواضع أحدٌ لله إلاَّ رفعه الله).

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيِّ قَالَ (سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَؤُهَا وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَقْرَأَنِيهَا فَكِدْتُ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَمْهَلْتُهُ حَتَّى انْصَرَفَ ثُمَّ لَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ فَجِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأْتَنِيهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أَرْسِلْهُ اقْرَأْ» فَقَرَأَ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَكَذَا أُنْزِلَتْ» ثُمَّ قَالَ لِيَ «اقْرَأْ» فَقَرَأْتُ فَقَالَ «هَكَذَا أُنْزِلَتْ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) .

[خ : ٢٤١٩] .

وعن ابن عَبَّاس . أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عليه السلام عَلَى حَرْفٍ فَرَاجَعْتُهُ فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ فَيَزِيدُنِي حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ) .

[خ : ٣٢١٩] .

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عِنْدَ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ – قَالَ – فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ. فَقَالَ «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ وَإِنَّ أُمَّتِي لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ» ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ فَقَالَ «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ وَإِنَّ أُمَّتِي لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ» ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلاَثَةِ أَحْرُفٍ. فَقَالَ «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ وَإِنَّ أُمَّتِي لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ» ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةَ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَءُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا) .

==========

(**عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيِّ**) من كبار التابعين مات سنة : ٨٨هـ .

(**قَالَ : سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ**) الصحابي الجليل .

(**يَقُولُ سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ**) الأسديّ، له ولأبيه صحبة، وكان إسلامهما يوم الفتح، وكان لهشام فضل، ومات قبل أبيه .

(**يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَؤُهَا**) أي : على الوجه الذي أقرؤها به أنا .

(**وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَقْرَأَنِيهَا**) يعني أنه أخذ تلك السورة من في رسول الله ﷺ مباشرةً، ولم يأخذها بواسطة، ولهذا شدّد النكير عليه؛ لتأكّده من صحّة قراءة نفسه دون صاحبه .

(**فَكِدْتُ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْهِ**) أي : قاربت أن آخذه بعَجَلَة، وأجُرّه في الصلاة .

(**ثُمَّ أَمْهَلْتُهُ**) أي : تركته .

(**حَتَّى انْصَرَفَ**) أي : سلم من صلاته .

(**ثُمَّ لَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ**) أي : جعلت رداءه في عنقه، ثم جَرَرته .

(**أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ**) القرآن .

(**عَلَى حَرْفٍ**) واحد في الأمر .

(**فَرَاجَعْتُهُ**) أي جبريل عليه السلام، أي طلبت منه أن يراجع الله عزَّ وجلَّ في التخفيف على أمتي، وليس المراد أنه ﷺ راجع جبريل حتى يُخفّف له من عنده؛ لأنه لا يستطيع ذلك .

(**فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ**) أي : أطلب منه الزيادة في التخفيف، والتوسعة.

قال النوويّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- معناه: لم أزل أطلب منه أن يطلب من اللَّه تعالى الزيادة في الحرف، للتوسعة والتخفيف، ويسأل جبريل ربه سبحانه وتعالى، فيزيده حتى انتهى إلى السبعة.

(**فَيَزِيدُنِي**) أي : ويسأل جبريل عليه السلام ربّه في الزيادة .

(**حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**) أي : أوجه يجوز أن يُقرأ بكلّ وجه منها .

(**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عِنْدَ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ**) بفتح الهمزة، وبضاد معجمةَ مقصورة: أي عند مُستَنقِع مائهم، قال ابن سِيدَهْ: الأضَاة: الماء المستَنقِعُ من سَيْلٍ، أو غيره .

(**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ**) **أي : على وجه واحد .**

(**فَقَالَ : أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ**) **قال القرطبيّ** -رَحِمَهُ اللَّهُ-: قوله: "أسأل اللَّه معافاتَه" أي تسهيله وتيسيره، من عَفَا الأثرُ: أي سَهُل وتَغَيَّر، وسؤاله المغفرة؛ مخافة وقوع التقصير فيما يلزم من ذلك .

(**وَإِنَّ أُمَّتِي لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ**) يعنى أنه ﷺ سأل اللَّه عزَّ وجلَّ أن يتجاوز عن أمته عن القراءة على حرف واحد، ويُوَسِّع لها، ويغفر لها ذنوبها، فإنها لا تطيق ذلك، لعدم وحدة لغتهم، فلو كُلِّفوا أن يقرؤوا بلغة قريش التي هي لغة النبيّ ﷺ مثلًا لشقّ عليهم ذلك؛ لعدم ممارستهم لها.

وقد أخرج الترمذيُّ عن زِرّ بن حُبَيش، عن أبي بن كعب ﷺ، قال: لَقِي رسولُ اللَّه ﷺ جبريلَ، فقال: "يا جبريل، إني بعثت إلى أمة أميين، منهم العجوز، والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتابًا قطّ، قال: يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف"، قال الترمذي: حسن صحيح.

(**فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَءُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا**) أي : فَأيُّ حرف من الحروف السبعة قرؤوا عليه فقد وافقوا الصواب.

١-الحديث دليل على أن القرآن أنزل على سبعة أحرف .

وقد اختلف العلماء في معنى ذلك على أقوال كثيرة .

وقد ذكر العلماء قرابة أربعين قولاً في هذه المسألة .

وأحسن الأقوال مما قيل في معناها : أنها سبعة أوجه من القراءة تختلف باللفظ وقد تتفق بالمعنى وإن اختلفت في المعنى : فاختلافها من باب التنوع والتغاير لا من باب التضاد والتعارض .

نحو: أقبل، وتعال، وهلم، واستعجل، فهذه أحرف كلها تدل على معنى واحد هو طلب الحضور، قيل: وعلى هذا أكثر أهل العلم .

ومعنى (حرف) في اللغة : الوجه، قال تعالى: (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين).

٢-قال بعض العلماء: إن معنى الأحرف لغات العرب وهذا بعيد .

لحديث الباب (أن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأها عليه وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها ...) .

ومما هو معلوم أن (هشاماً) أسدي قرشي، وأن (عمر) عدوي قرشي فكلاهما من قريش وليس لقريش إلا لغة واحدة، فلو كان اختلاف الأحرف اختلافاً في اللغات لما اختلف القرشيان .

٣- السبب في نزول القرآن على سبعة أحرف ؟

قد أجاب الإمام ابن الجزري عن هذا في النشر بقوله: فأما سبب وروده على سبعة أحرف فللتخفيف على هذه الأُمَّة وإرادة اليُسْر بها، والتهوين عليها؛ شرفًا لها وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها، وإجابة لقصد نبيِّها أفضل الخلق وحبيب الحق؛ حيث أتاه جبريل، فقال له: (إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف، فقال: أسأل الله مُعافاته ومعونته، وإن أُمَّتي لا تطيق ذلك) ولم يزل يُرِدِّد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف .

وفي الصحيح أيضًا: (إن ربِّي أرسل إليَّ أن اقرأ القرآن على حرف، فردَدْتُ إليه أن هوِّن على أُمَّتي، ولم يزل يردد حتى بلغ سبعة أحرف) .

وقال النوويّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: قال العلماء: سبب إنزال القرآن على سبعةٍ التخفيفُ والتسهيل، ولهذا قال النبيّ ﷺ: "هَوّن على أمتي"، كما صُرّح به في الرواية الأخرى.

٤-ما ينبغي اعتقاده في الأحرف السبعة

إن هذه الأحرف نزل بها القرآن من عند الله تعالى كما دلت على ذلك أحاديث النبي ﷺ ، وهذه الأحرف ليس فيها تضادٌّ ولا تنافٍ للمعنى، ولا إحالة ولا فساد .

قال الإمام أبو عمرو: وجملة ما نعتقده من هذا الباب وغيره: من إنزال القرآن، وكتابته، وجمعه وتأليفه، وقراءته، ووجوهه، ونذهب إليه ونختاره، أن القرآن مُنزَّل على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ، وحقٌّ وصوابٌ، وأن الله تعالى قد خيَّر القُرَّاء في جميعها، وصوَّبهم إذا قرؤوا بشيء منها، وأن هذه الأحرف السبعة المختلف معانيها تارة، وألفاظها تارة مع اتِّفاق المعنى، ليس فيها تضادٌّ ولا تَنافٍ للمعنى، ولا إحالة ولا فساد، وأنَّا لا ندري حقيقة، أي هذه السبعة الأحرف كان آخر العرض أو آخر العرض كان ببعضها دون جميعها وأن جميع هذه السبعة أحرف قد كانت ظهرت واستفاضت عن النبي ﷺ وضبطتها الأمة على اختلافها عنه وتلقَّتْها منه، ولم يكن شيء منها مشكوكًا فيه، ولا مرتابًا به .

عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ (جَاءَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ نَهِيكُ بْنُ سِنَانٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ كَيْفَ تَقْرَأُ هَذَا الْحَرْفَ أَلِفًا تَجِدُهُ أَمْ يَاءً مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ أَوْ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ يَاسِنٍ قَالَ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَكُلَّ الْقُرْآنِ قَدْ أَحْصَيْتَ غَيْرَ هَذَا قَالَ إِنِّي لأَقْرَأُ الْمُفَصَّلَ فِي رَكْعَةٍ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ إِنَّ أَفْضَلَ الصَّلاَةِ الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ إِنِّي لأَعْلَمُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرُنُ بَيْنَهُنَّ سُورَتَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ. ثُمَّ قَامَ عَبْدُ اللَّهِ فَدَخَلَ عَلْقَمَةُ فِي إِثْرِهِ ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ قَدْ أَخْبَرَنِي بِهَا) .

وعن أبي وائل (أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ إِنِّي قَرَأْتُ الْمُفَصَّلَ اللَّيْلَةَ كُلَّهُ فِي رَكْعَةٍ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ لَقَدْ عَرَفْتُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرُنُ بَيْنَهُنَّ -قَالَ- فَذَكَرَ عِشْرِينَ سُورَةً مِنَ الْمُفَصَّلِ سُورَتَيْنِ سُورَتَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ) .

[خ : ٧٧٥] .

==========

(**عَنِ الأَعْمَشِ**) سليمان بن مِهران .

(**عَنْ أَبِي وَائِلٍ**) شَقِيق بن سَلَمة الأسدي الكوفي ، مات في خلافة عمر بن عبد العزيز .

(**قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ نَهِيكُ بْنُ سِنَانٍ**) بفتح النون، وكسر الهاء .

(**إِلَى عَبْدِ اللَّهِ**) ابن مسعود .

(**فَقَالَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ**) كنية ابن مسعود .

(**كَيْفَ تَقْرَأُ هَذَا الْحَرْفَ أَلِفًا تَجِدُهُ أَمْ يَاءً مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ أَوْ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ يَاسِنٍ**) (مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ) أو (مِن ماءٍ غَيرِ ياسِنٍ)؟ والمعنى: هلِ الكلمةُ بحَرفِ الألِفِ أمْ بحَرفِ الياءِ؟

(**فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَكُلَّ الْقُرْآنِ قَدْ أَحْصَيْتَ غَيْرَ هَذَا**) هذا ليس بجواب ، وإنما لم يُجبه لأنه فَهِمَ منه أنه غير مسترشد في سؤاله؛ إذ لو كان مسترشِدًا لوجب جوابه .

(**قَالَ إِنِّي لَأَقْرَأُ الْمُفَصَّلَ فِي رَكْعَةٍ**) المفَصَّل اختُلف في أوله، والصحيح أنه من {ق} إلى آخر القرآن، وسُمّي مفصّلًا؛ لكثرة الفصل بين سُوره بالبسملة على الصحيح، قاله في "الفتح" .

(**فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ**) بفتح الهاء، وتشديد الذال العجمة: أي سَرْدًا وإفراطًا في السرعة .

(**إِنِّي لَأَعْلَمُ النَّظَائِرَ**) أي: السور المتماثلة في المعاني، كالموعظة، أو الحِكَم، أو القصص، لا المتماثلة في عدد الآي؛ لما سيظهر عند تعيينها، قال المحبّ الطبريّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: كنت أظنّ أن المراد أنها متساوية في العد، حتى اعتبرتها، فلم أجد فيها شيئًا متساويًا.

(**الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرُنُ بَيْنَهُنَّ**) أي: يجمع بين السور.

(**سُورَتَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ**) أي: يَقْرِن سورتين في كل ركعة، والمراد أنه يقرن بينهما بعد قراءة الفاتحة، وإنما سكت عنها، لظهور أمرها، والله تعالى أعلم.

==========

١-النهي عن الهذ في قراءة القرآن والسرعة وعدم التدبر كهذ الشعر .

والهذ هو الإسراع في القراءة دون تدبر أو ترتيل. وشبهه بهذ الشعر لأنه يُقرأ بسرعة وسهولة مثل إنشاد الشعر بغير تأمل.

قال القرطبيّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وهذُّ الشعر: الاسترسال في إنشاده من غير تدبّر في معانيه، ومعنى هذا أن الشعر هو الذي إن فَعَل الإنسان فيه ذلك سُوّغ له، وأما في القرآن فما ينبغي مثل ذلك، بل يُقرأ بترتيل وتدبّر.

قال في "الفتح": ولا خلاف في جواز السرد بدون تدبر، لكن القراءة بالتدبر أعظم أجرًا. انتهى.

٢-وقد وردت عن الصحابة والتابعين وأئمة السلف أقوال عديدة تؤكد النهي عن الهذّ والإسراع المفرط، وتحثّ على الترتيل والتدبر في قراءة القرآن الكريم .

عَنْ ابن مَسْعُودٍ قَالَ: لا تَنْثرُوُهُ نَثْرَ الرّمْلِ ولا تَهُذّوهُ هَذّا الشَّعْر قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ وَحَرِّكُوا بِهِ القُلُوبَ وَلا يَكُنْ هَمُّ أَحَدُكُمْ آخَرَ السُّورَةِ . رَوَاهُ البَغوي.

وَعَنْ ابن عَبَّاسٍ قال : لأَنْ أَقْرَأَ سُورَة أُرَتّلهَا أحبُّ إِلَيَّ مِنْ القُرْآنِ كُلَّه .

وعن عائشة، أنه ذكر لها أن ناسًا يقرءون القرآن في الليل مرة أو مرتين، فقالت: أولئك قرءوا ولم يقرءوا، كنت أقوم مع النبي ﷺ ليلة التمام، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء، فلا يمرُّ بآية فيها تخوُّفٌ إلا دعا الله واستعاذ، ولا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله ورغب إليه .

وعن ابن عمر . قال : لقد عشنا دهراً طويلاً وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن... ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدري ما آمره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده منه، ينثره نثر الدقل .

قال ابن القيم رحمه الله : وفي الجملة؛ فلا شيء أنفعُ للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّر والتفكُّر؛ فإنه جامعٌ لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورثُ المحبةَ والشوقَ والخوفَ والرجاءَ والإنابةَ والتوكُّل والرضا والتفويض والشكرَ والصبرَ وسائر الأحوال التي بها حياةُ القلب وكمالُه، وكذلك يزجرُ عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فسادُ القلب وهلاكُه. فلو عَلِمَ الناسُ ما في قراءة القرآن بالتدبُّر لاشتغلوا بها عن كلّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّرٍ حتى مرَّ بآيةٍ هو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه كرَّرها ولو مئة مرَّة، ولو ليلة؛ فقراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغير تدبُّرٍ وتفهُّم، وأنفعُ للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذَوْقِ حلاوة القرآن. وهذه كانت عادة السَّلف، يردِّدُ أحدُهم الآيةَ إلى الصباح . (مفتاح دار السعادة)

وقال الإمام الآجري : القليل من الدرس للقرآن مع الفكر فيه وتدبره أحبّ إليَّ من قراءةِ الكثير من القرآن بغير تدبر ولا تفكر فيه، وظاهر القرآن يدل على ذلك، والسنة، وقول أئمة المسلمين .

وقال القرطبي : الترتيل أفضل من الهذ ، إذ لا يصح التدبر مع الهذ .

٣-في هذا الحديث كَرِهَ ابن مسعود فِعلَ الرَّجلِ الَّذي قال له: إنَّه قرَأَ المفصَّلَ كلَّه في رَكعةٍ ... وقدْ أنكَرَ ابنُ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه هذا الفِعلَ مِن الرَّجُلِ، وقال له: هَذًّا كهَذِّ الشِّعرِ! أي: قرَأْتَه قِراءةً مُتسرِّعَةً ليس فيها تَدبُّرٌ كما يُفعَلُ في الشِّعرِ، وإنَّما قال ذلك لأنَّ تِلكَ الصِّفةَ كانتْ عادَتَهم في إنشادِ الشِّعْرِ، وهذا الإنكارُ مِن ابنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه لفِعلِ الرَّجلِ؛ لِمَا فيه مِن قلَّةِ التَّدبُّرِ لِمَا يقرَؤُه، أمَّا لو كان المصلِّي مُتدبِّرًا مُتأنِّيًا، فإنَّ قِيامِه زِيادةٌ له في الأجر .

٤-أن المقصود من قراءة القرآن التدبر والتعبد .

٥-قَوْله (**إِنِّي لَأَقْرَأ الْمُفَصَّل فِي رَكْعَة فَقَالَ اِبْن مَسْعُود : هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْر**)

مَعْنَاهُ: أَنَّ الرَّجُل أَخْبَرَ بِكَثْرَةِ حِفْظه وَإِتْقَانه، فَقَالَ اِبْن مَسْعُود: تَهُذُّهُ هَذًّا، وَهُوَ بِتَشْدِيدِ الذَّال، وَهُوَ شِدَّة الْإِسْرَاع وَالْإِفْرَاط فِي الْعَجَلَة. فَفِيهِ النَّهْي عَنْ الْهَذّ، وَالْحَثّ عَلَى التَّرْتِيل وَالتَّدَبُّر، وَبِهِ قَالَ جُمْهُور الْعُلَمَاء. قَالَ الْقَاضِي: وَأَبَاحَتْ طَائِفَة قَلِيلَة الْهَذّ.

٦-قوله لِلَّذِي سَأَلَ اِبْن مَسْعُود عَنْ آسِن (كُلّ الْقُرْآن قَدْ أَحْصَيْت غَيْر هَذَا الْحَرْف)

هَذَا مَحْمُول عَلَى أَنَّهُ فَهِمَ مِنْهُ أَنَّهُ غَيْر مُسْتَرْشِد فِي سُؤَاله ، إِذْ لَوْ كَانَ مُسْتَرْشِدًا لَوَجَبَ جَوَابه وَهَذَا لَيْسَ بِجَوَابٍ .

٧-قَوْله (**إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآن لَا يُجَاوِز تَرَاقِيَهُمْ وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْب فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ**)

مَعْنَاهُ : أَنَّ قَوْمًا لَيْسَ حَظّهمْ مِنْ الْقُرْآن إِلَّا مُرُوره عَلَى اللِّسَان فَلَا يُجَاوِز تَرَاقِيهمْ لِيَصِل قُلُوبهمْ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ هُوَ الْمَطْلُوب ، بَلْ الْمَطْلُوب تَعَلُّقه وَتَدَبُّره بِوُقُوعِهِ فِي الْقَلْب .

قال القرطبيّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: هذا إنكار منه على من يُسرع في قراءته، ولا يُرتّل، ولا يتدبّر، ونصب "هَذًّا" على المصدر، كأنه قال: أَهُذُّ هَذًّا، وهَذُّ الشِّعر: الاسترسال في إنشاده من غير تدبّر في معانيه، ومعنى هذا أن الشعر هو الذي إن فَعَل الإنسان فيه ذلك سُوِّغ له، وأما في القرآن فلا ينبغي مثل ذلك فيه، بل يقرأ بترتيل وتدبّر، ولذلك قال: (إِنَّ أقوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ) هذا اقتباس من حديث الخوارج حيث قال ﷺ : لا يجاوز حناجرهم"، متّفقٌ عليه، وهو كناية عن عدم الفهم؛ أي: لا يجاوز القرآن تراقيهم؛ لِيَصِلَ إلى قلوبهم، فليس حظّهم منه إلا مروره على ألسنتهم.

٨-قوله (**عِشْرُونَ سُورَة فِي عَشْر رَكَعَات مِنْ الْمُفَصَّل**) .

وَقَدْ جَاءَ بَيَان هَذِهِ السُّورَة الْعِشْرِينَ فِي رِوَايَة فِي سُنَن أَبِي دَاوُدَ : الرَّحْمَن وَالنَّجْم فِي رَكْعَة ، وَاقْتَرَبَتْ وَالْحَاقَّة فِي رَكْعَة وَالطُّور وَالذَّارِيَات فِي رَكْعَة ، وَالْوَاقِعَة وَنُون فِي رَكْعَة ، وَسَأَلَ سَائِل وَالنَّازِعَات فِي رَكْعَة ، وَوَيْل لِلْمُطَفِّفِينَ وَعَبَسَ فِي رَكْعَة ، وَالْمُدَّثِّر

وَالْمُزَّمِّل فِي رَكْعَة ، وَهَلْ أَتَى وَلَا أُقْسِم فِي رَكْعَة ، وَعَمَّ وَالْمُرْسَلَات فِي رَكْعَة ، وَالدُّخَان وَإِذَا الشَّمْس كُوِّرَتْ فِي رَكْعَة ، وَسُمِّيَ مُفَصَّلًا لِقِصَرِ سُوَره وَقُرْب اِنْفِصَال بَعْضهنَّ مِنْ بَعْض .

٩-فِيهِ جَوَاز قراءة سُورَتَيْنِ فِي رَكْعَة .

١٠-فضل العلم والعلماء :حيث إن ابن مسعود ﷺ علم بهدي النبي ﷺ فأنكر على هذا الرجل فعله.

١١-التنبيه على خطأ بعض المصلين :الذين يسرعون في الصلاة إما لضيق الوقت أو لغير ذلك، مما يفسد خشوع الصلاة.

١٢-جواز قراءة السور بترتيب المصحف أو بغيره في الصلاة بحسب ما ثبت من السنة، مع مراعاة هدي النبي ﷺ.

١٣-حرص الصحابة على نقل تفاصيل عبادة النبي ﷺ؛ فابن مسعود ﷺ لم يكتفِ ببيان الحكم، بل ذكر السور التي كان النبي ﷺ يقرن بينها.

١٤-فضل معرفة سنة النبي ﷺ والاقتداء بها، فقول ابن مسعود : لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن ، يدل على عنايته الدقيقة بهديه ﷺ.

١٥-المقصود من الحديث ليس أن قراءة القرآن بسرعة محرمة مطلقًا، وإنما الذم متوجه إلى الهذّ الذي يخل بالقراءة والتدبر وأداء الحروف والمعاني.

١٦-الاقتداء بالنبي ﷺ في العبادة من كمال الإيمان، ولذلك استدل ابن مسعود ﷺ بفعل النبي ﷺ.

١٧-السنة النبوية شارحة ومبيّنة لكيفية تطبيق القرآن؛ فالقرآن أمر بالترتيل، وجاءت السنة تبين صورة من صور الترتيل والقراءة في الصلاة.

١٨-إنكار الخطأ بالعلم والحكمة؛ فابن مسعود ﷺ لم يكتفِ بالإنكار، بل بيّن البديل من هدي النبي ﷺ.

١٩-التعليم بالمثال العملي؛ فقد ذكر ابن مسعود السور التي كان النبي ﷺ يقرن بينها، فلم يكن كلامه مجرد توجيه نظري.

٢٠-المعلم ينبغي أن يصحح المفاهيم الخاطئة؛ فقد يظن الإنسان أن كثرة القراءة مع السرعة الشديدة هي الأفضل، فيحتاج إلى توجيه.

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِي قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لاَ صَلاَةَ بَعْدَ صَلاَةِ الْعَصْرِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ وَلاَ صَلاَةَ بَعْدَ صَلاَةِ الْفَجْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ الصَّلاَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ وَعَنِ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصُّبْحِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ) .

[خ : ٥٨٨] .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ سَمِعْتُ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَكَانَ أَحَبَّهُمْ إِلَىَّ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ الصَّلاَةِ بَعْدَ الْفَجْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ وَبَعْدَ الْعَصْرِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ) .

[خ : ٥٨١] .

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لاَ تَحَرَّوْا بِصَلاَتِكُمْ طُلُوعَ الشَّمْسِ وَلاَ غُرُوبَهَا فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بِقَرْنَىْ شَيْطَانٍ).

[خ : ٥٨٥] .

عن عُقْبَةَ بْن عَامِر الْجُهَنِيّ قال (ثَلاَثُ سَاعَاتٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْهَانَا أَنْ نُصَلِّىَ فِيهِنَّ أَوْ أَنْ نَقْبُرَ فِيهِنَّ مَوْتَانَا حِينَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ بَازِغَةً حَتَّى تَرْتَفِعَ وَحِينَ يَقُومُ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ حَتَّى تَمِيلَ الشَّمْسُ وَحِينَ تَضَيَّفُ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ حَتَّى تَغْرُبَ) .

==========

(**لا صلاة** ...) الأصل في نفي الشَّرع أن يكون لنفي الصِّحة لا لنفي الكمال إلَّا بدليل، ونفي الصِّحة نفي للوجود الشَّرعي في الواقع، فيكون قوله: «لا صلاة» نفيًا للصَّلاة الشَّرعيَّة لا نفيًا للفعل الحسي، ويكون النَّفي بمعنى النَّهي، أي: لا تصلُّوا فمن فعل فصلاته باطلة، وإنما عبَّر بالنفي لأنه أبلغ من النَّهي؛ لأن فيه تقريرًا وتأكيدًا لاجتنابه، كأنه أمر لا يمكن أن يكون، وأمَّا النهي فلا يعطي هذا المعنى .

(**لَا صَلَاةَ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ**) أي: بعد أدائها .

(**مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَكَانَ أَحَبَّهُمْ إِلَيَّ**) ولفظ البخاري (شَهِدَ عندي رجال مرضيُّون، وأرضاهم عندي عمر) .

(**وَلَا صَلَاةَ بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ**) أي: بعد أدائها .

١-في هذه الأحاديث النهي عن صلاة التطوع في أوقات النهي وهي كما في هذه الأحاديث :

وأوقات النهي ثلاثة بالاختصار وخمسة بالبسط

أولاً: من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، ومن طلوعها إلى ارتفاعها.

الثاني: من صلاة العصر إلى غروب الشمس، ومن غروبها إلى أن يتم.

الثالث: إذا قامت الشمس في وسط السماء.

وحديث عُقْبَة (ثَلَاثُ سَاعَاتٍ كَانَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺيَنْهَانَا أَنْ نُصَلِّي فِيهِنَّ .. حِينَ تَطْلُعُ اَلشَّمْسُ بَازِغَةً حَتَّى تَرْتَفِعَ، وَحِينَ يَقُومُ قَائِمُ اَلظَّهِيرَةِ حَتَّى تَزُولَ اَلشَّمْسُ، وَحِينَ تَتَضَيَّفُ اَلشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ).

دل على الأوقات القصيرة (ومن طلوع الشمس إلى ارتفاعها. ومن غروب الشمس إلى أن يتم. وإذا قامت الشمس في وسط السماء).

٢- ففي هذه الأحاديث النهي عن صلاة التطوع في هذه الأوقات، وهذا قول جماهير العلماء.

قال ابن المنذر رحمه الله : قد ثبتت الأخبار عن رسول الله ﷺ بنهيه عن الصلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس، وعن الصلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس، فكان الذي يوجبه ظاهر هذه الأحاديث عن النبي ﷺ الوقوف عن جميع الصلوات بعد العصر حتى تغرب الشمس، وبعد الصبح حتى تطلع الشمس .

قال الترمذي رحمه الله : ... قول أكثر الفقهاء من أصحاب النّبيّ ﷺ ومن بعدهم، أنّهم كرهوا الصّلاة بعد صلاة الصّبح حتّى تطلع الشّمس، وبعد العصر حتّى تغرب الشّمس، وأمّا الصّلوات الفوائت فلا بأس أن تُقْضى بعد العصر وبعد الصّبح .

وقال أيضاً : والّذي اجتمع عليه أكثر أهل العلم: على كراهية الصّلاة بعد العصر حتّى تغرب الشّمس، وبعد الصّبح حتّى تطلع الشّمس، إلّا ما استثني من ذلك ... " انتهى.

تنبيه :

قال بعض العلماء بالجواز .

قال الحافظ: وبه قال داود وغيره من أهل الظاهر، وبذلك جزم ابن حزم. قالوا: إن أحاديث النهي منسوخة، **والراجح قول الجمهور**.

٣ – متى يبدأ النهي، هل يبدأ بعد دخول الوقت أو بعد الصلاة؟

أما العصر فيبدأ بعد الصلاة بلا خلاف.

لحديث أبي سعيد السابق (لا صلاة بعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس).

قال ابن قدامة: وَالنَّهْيُ عَنْ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْعَصْرِ مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلِ الصَّلَاةِ، فَمَنْ لَمْ يُصَلِّ أُبِيحَ لَهُ التَّنَفُّلُ، وَإِنْ صَلَّى غَيْرُهُ. وَمَنْ صَلَّى الْعَصْرَ فَلَيْسَ لَهُ التَّنَفُّلُ وَإِنْ لَمْ يُصَلِّ أَحَدٌ سِوَاهُ، لَا نَعْلَمُ فِي هَذَا خِلَافًا عِنْدَ مَنْ يَمْنَعُ الصَّلَاةَ بَعْدَ الْعَصْرِ.

وأما الفجر فقد اختلف العلماء:

القول الأول: أن النهي يبدأ بطلوع الفجر.

وهذا مذهب الحنفية والحنابلة.

لحديث ابن عمر. قال: قال ﷺ (لا صلاة بعد الفجر إلا سجدتين) رواه أبو داود.

القول الثاني: أن النهي يبدأ بعد صلاة الفجر.

وهذا مذهب الشافعي.

أ– لحديث أَبِي سَعِيد السابق (لَا صَلَاةَ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، وَلَا صَلَاةَ بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ).

ب– وَفِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ قَالَ (صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنْ الصَّلَاةِ، كَذَا) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

ج– وَلِأَنَّ لَفْظَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْعَصْرِ عُلِّقَ عَلَى الصَّلَاةِ دُونَ وَقْتِهَا، فَكَذَلِكَ الْفَجْرُ.

د– وَلِأَنَّهُ وَقْتُ نَهْيٍ بَعْدَ صَلَاةٍ، فَيَتَعَلَّقُ بِفِعْلِهَا، كَبَعْدِ الْعَصْرِ.

وهذا القول هو الصحيح لكن بين الأذان والإقامة لا يشرع سوى ركعتي الفجر.

وقد ذكر النووي هذه المسألة وفصل فيها فقال:

قوْله (كَانَ إِذَا طَلَعَ الْفَجْر لَا يُصَلِّي إِلَّا رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ) قَدْ يَسْتَدِلّ بِهِ مَنْ يَقُول: تُكْرَه الصَّلَاة مِنْ طُلُوع الْفَجْر إِلَّا سُنَّة الصُّبْح، وَمَا لَهُ سَبَبٌ، وَلِأَصْحَابِنَا فِي الْمَسْأَلَة ثَلَاثَة أَوْجُه:

أَحَدهَا: هَذَا، وَنَقَلَهُ الْقَاضِي عَنْ مَالِك وَالْجُمْهُور.

وَالثَّانِي: لَا تَدْخُل الْكَرَاهَة حَتَّى يُصَلِّي سُنَّة الصُّبْح.

وَالثَّالِث: لَا تَدْخُل الْكَرَاهَة حَتَّى يُصَلِّي فَرِيضَة الصُّبْح، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيح عِنْد أَصْحَابنَا، وَلَيْسَ فِي هَذَا الْحَدِيث دَلِيل ظَاهِر عَلَى الْكَرَاهَة إِنَّمَا فِيهِ الْإِخْبَار بِأَنَّهُ كَانَ ﷺ لَا يُصَلِّي غَيْر رَكْعَتَيْ السُّنَّة وَلَمْ يَنْهَ عَنْ غَيْرهَا. (شرح مسلم)

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في الشرح الممتع: ولكن القول الصحيح: أن النهي يتعلَّقُ بصلاةِ الفجرِ نفسِهَا، وأما ما بين الأذان والإقامة، فليس وقت، لكن لا يُشرع فيه سوى ركعتي الفجر ... فإذا كان هذا هو القول الصَّحيح؛ فما الجواب عن الحديث الذي استدلَّ به المؤلف (لا صلاة الفجر إلا سجدتين)؟

الجواب عن ذلك من وجهين:

أحدهما: أنَّ الحديث ضعيف.

الثاني: على تقدير أنَّ الحديث صحيحٌ؛ يُحمل قولُه: (لا صلاةَ بعدَ طُلوع الفجرِ) على نفي المشروعية، أي: لا يُشرع للإنسانِ أنْ يتطوَّعَ بنافلةٍ بعد طُلوع الفجر إلا ركعتي الفجر، وهذا حقٌّ؛ فإنه لا ينبغي للإنسان بعد طُلوعِ الفجر أنْ يتطوَّع بغير ركعتي الفجر، فلو دخلت المسجدَ وصلَّيتَ ركعتي الفجر، ولم يَحِنْ وقتُ الصَّلاة وقلتَ: سأتطوَّعُ؟ قلنا لك: لا تفعل؛ لأنَّ هذا غيرُ مشروع، لكن لو فعلتَ لم تأثم، وإنما قلنا: غيرُ مشروع؛ لأنَّ الرسول ﷺ إنما كان يُصلِّي ركعتين خفيفتين بعد طُلوعِ الفجرِ. وهي سُنَّةُ الفجرِ فقط، يعني: بل حتى تطويل الرَّكعتين ليس بمشروع. (الشرح الممتع)

٤ – الحكمة من النهي عن الصلاة في هذه الأوقات:

أولاً: أنَّ في وقت الظهيرة قُبيل الزوال يُوقد فيه على جهنم إيقادًا بليغًا .

لحديث عمرو بن عبسة ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال (... ثم صلِّ؛ فإن الصلاة مشهودةٌ محضورة حتى يستقلَّ الظل بالرمح، ثم أقْصِر عن الصلاة؛ فإنه حينئذٍ تُسجر جهنم) رواه مسلم .

ثانياً : وأمَّا الحِكمة من النهي عنِ الصلاة عندَ طلوع الشمس وعندَ غروبها، فهي مشابهة المشركين، فإنَّهم يسجدون للشمس عندَ طلوعها وعندَ غروبها.

ففي حديث الباب –حديث ابن عمر– (لا تَحَرَّوا بصلاتكم طلوعَ الشمس ولا غُروبها؛ فإنَّها تطلع بقرْني شيطان.

وفي حديث عمرو بن عبسة ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال (صلِّ الصبح، ثم أَقْصِرْ عن الصلاة حتى تطلُع الشمس حتى ترتفع؛ فإنها تطلع بين قرْني شيطان، وحينئذٍ يسجد لها الكفَّار) ثم قال ﷺ (حتى تصلِّي العصر، ثم أقصِرْ عن الصلاة حتى تغربَ الشمس؛ فإنَّها تغرب بين قرني شيطان، وحينئذٍ يسجد لها الكفار) .

قوله (فإنها تطلع بين قرني شيطان) .

قال النووي: قيل المراد بقرني الشيطان: حزبه وأتباعه، وقيل: غلبة أتباعه وانتشار فساده، وقيل: القرنان ناحيتا الرأس وأنه على ظاهره، وقال: وهذا الأقوى، ومعناه: أنه يدني رأسه إلى الشمس في هذه الأوقات ليكون الساجدون لها من الكفار كالساجدين له في الصورة، وحينئذٍ يكون له ولشيعته تسلط ظاهر.

ثالثًا: وأمَّا النهي عنِ الصلاة بعدَ صلاة الفجْر إلى طلوع الشمس، وبعدَ صلاة العصْر إلى غروب الشَّمس، فمِن باب سدِّ الذريعة .

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– ... الأصل في النهي أنَّه عندَ الطلوع والغروب ... لكن نُهي عن الصلاة بعدَ الصلاتين سدًّا للذريعة؛ فإنَّ المتطوع قد يصلِّي بعدهما حتى يُصلِّي وقتَ الطلوع والغروب .

رابعًا: وهناك حِكمة أُخرى في النَّهي عن الصلاة في هذه الأوقات عمومًا، وهي إجمامُ النفوس، وتنشيطها حتى تُقبل بعد وقت المنْع بنشاط ورغْبة .

كما أشار إلى ذلك شيخُ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– فقال: في النهي عنه بعض الأوقات مصالِح أُخَر؛ من إجمام النفوس بعض الأوقات مِن ثقل العبادة، كما يجم بالنَّوْم وغيره ... ومِن تشويقها وتحبيب الصلاة إليها إذا مُنعِت منها وقتًا، فإنَّه يكون أنشطَ وأرغب فيها؛ فإنَّ العبادة إذا خُصت ببعض الأوقات نشطتِ النفوس لها أعظمَ ممَّا تنشط للشيءِ الدائم، ومنها: أنَّ الشيء الدائم تسأم منه وتملُّ وتضجر، فإذا نهى عنه بعضَ الأوقات زال ذلك الملل . (مجموع الفتاوى)

٥ – هناك صلوات مستثناة تفعل في هذه الأوقات؟

أولاً: الفرائض.

كأن ينسى الإنسان الصلاة الفريضة ويتذكرها وقت النهي، فإنه يجب أن يصليها.

أ–لقوله ﷺ (من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها) متفق عليه.

ب–ولأن الفرائض من أوجب الواجبات، وهي دين فوجب أداؤه على الفور من حين أن يعلم به.

قال ابن عبد البر: وقال مالك والثوري والشافعي والأوزاعي –وهو قول عامة العلماء– من أهل الحديث والفقه من نام عن صلاة أو نسيها أو فاتته بوجه من وجوه الفوت ثم ذكرها عند طلوع الشمس واستوائها أو غروبها أو بعد الصبح أو العصر؛ صلاها أبداً متى ذكرها.

ثانياً: إعادة الجماعة.

بحيث إذا أتى مسجد جماعة ووجدهم يصلون وقد صلى، يستحب له أن يصلي معهم ولو كان وقت نهي.

لحديث يَزِيدَ بْن الأَسْوَد (أَنَّهُ صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ غُلاَمٌ شَابٌّ، فَلَمَّا صَلَّى إِذَا رَجُلاَنِ لَمْ يُصَلِّيَا فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ، فَدَعَا بِهِمَا فَجِئَ بِهِمَا تُرْعَدُ فَرَائِصُهُمَا، فَقَالَ: مَا مَنَعَكُمَا أَنْ تُصَلِّيَا مَعَنَا؟ قَالاَ: قَدْ صَلَّيْنَا فِي رِحَالِنَا، فَقَالَ: لاَ تَفْعَلُوا، إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فِي رَحْلِهِ ثُمَّ أَدْرَكَ الإِمَامَ وَلَمْ يُصَلِّ، فَلْيُصَلِّ مَعَهُ فَإِنَّهَا لَهُ نَافِلَة) رواه أبو داود.

ثالثاً: صلاة الجنازة، تفعل في أوقات النهي الطويلة (يعني إذا لم يكن عند الطلوع وعند الغروب).

قال ابن قدامة: أَمَّا الصَّلَاةُ عَلَى الْجِنَازَةِ بَعْدَ الصُّبْحِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، وَبَعْدَ الْعَصْرِ حَتَّى تَمِيلَ لِلْغُرُوبِ، فَلَا خِلَافَ فِيهِ، قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ: إجْمَاعُ الْمُسْلِمِينَ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الْجِنَازَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ وَالصُّبْحِ، وَأَمَّا الصَّلَاةُ عَلَيْهَا فِي الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي فِي حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ فَلَا يَجُوزُ. (المغني)

رابعاً: ركعتا الطواف.

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا تَمْنَعُوا أَحَدًا طَافَ بِهَذَا الْبَيْتِ وَصَلَّى أَيَّةَ سَاعَةٍ شَاءَ، مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ) رواه الترمذي.

قال ابن قدامة: (وَيَرْكَعُ لِلطَّوَافِ) يَعْنِي فِي أَوْقَاتِ النَّهْيِ، وَمِمَّنْ طَافَ بَعْدَ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ابْنُ عُمَرَ، وَابْنُ الزُّبَيْرِ، وَعَطَاءٌ، وَطَاوُسٌ، وَفَعَلَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ، وَالْحُسَيْنُ، وَمُجَاهِدٌ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَفَعَلَهُ عُرْوَةُ بَعْدَ الصُّبْحِ، وَهَذَا مَذْهَبُ عَطَاءٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَبِي ثَوْرٍ.

وَأَنْكَرَتْ طَائِفَةٌ ذَلِكَ، مِنْهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ، وَمَالِكٌ.

وَاحْتَجُّوا بِعُمُومِ أَحَادِيثِ النَّهْيِ.

وَلَنَا، مَا رَوَى جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ. أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا تَمْنَعُوا أَحَدًا طَافَ بِهَذَا الْبَيْتِ، وَصَلَّى فِي أَيِّ سَاعَةٍ شَاءَ، مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ) رَوَاهُ الْأَثْرَمُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَلِأَنَّهُ قَوْلُ مَنْ سَمَّيْنَا مِنْ الصَّحَابَةِ، وَلِأَنَّ رَكْعَتَيْ الطَّوَافِ تَابِعَةٌ لَهُ، فَإِذَا أُبِيحَ الْمَتْبُوعُ يَنْبَغِي أَنْ يُبَاحَ التَّبَعُ، وَحَدِيثُهُمْ مَخْصُوصٌ بِالْفَوَائِتِ، وَحَدِيثُنَا لَا تَخْصِيصَ فِيهِ، فَيَكُونُ أَوْلَى. (المغني)

٦ – اختلف العلماء في فعل الصلوات ذات السبب في أوقات النهي (كتحية المسجد، وصلاة الاستخارة، والكسوف) هل تفعل في وقت النهي أم لا؟ على قولين:

القول الأول: أنه لا يجوز التطوع مطلقاً في أوقات النهي.

وهذا مذهب الحنفية والمالكية والحنابلة.

أ–لعموم الأدلة (لا صلاة بعد الصبح ...).

ب–وحديث عقبة بن عامر (ثَلَاثُ سَاعَاتٍ كَانَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ يَنْهَانَا أَنْ نُصَلِّيَ فِيهِنَّ، وَأَنْ نَقْبُرَ فِيهِنَّ مَوْتَانَا: حِينَ تَطْلُعُ اَلشَّمْسُ بَازِغَةً حَتَّى تَرْتَفِعَ ...).

ففي هذا الحديث النهي عام عن جميع الصلوات، فتدخل ذوات الأسباب في هذا العموم.

القول الثاني: يجوز في أوقات النهي فعل ما له سبب، كتحية المسجد.

وهذا مذهب الشافعي، ورجحه كثير من المحققين كابن تيمية، وابن القيم، والشيخ ابن عثيمين وابن باز.

أ– لحديث أنس. قال: قال ﷺ (من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها) متفق عليه.

وجه الدلالة: أن الحديث دليل على جواز قضاء الصلاة المنسية أو الفائتة في أي وقت من الأوقات، ومنه يعلم أن المراد بالصلاة المنهي عن أدائها في أوقات النهي إنما هي التطوع المطلق دون ماله سبب كما في الصلاة المقضية.

ب–حديث أبي قتادة. قال: قال ﷺ (إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين) متفق عليه

وجه الدلالة: أن الأمر بصلاة تحية المسجد عام فيشمل جميع الأوقات بما فيها أوقات النهي، ومنه يستفاد أن ذوات الأسباب غير داخلة في عموم النهي عن الصلاة في أوقات النهي.

ج–لحديث بلال أن النبي ﷺ قال له (حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك أمامي في الجنة؟ فقال بلال: ما عملت في الإسلام عملاً أرجى عندي من أني أتطهر طهوراً من ليل أو نهار إلا صليت بهذا الطهور ما شاء الله). متفق عليه

فدل على أنه يصلي ركعتي الوضوء في أي وقت، ولم ينكر عليه.

د– حديث ابن عمر –حديث الباب– (لا تحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها).

وجه الاستدلال: أن النهي جاء عن تحري الصلاة، والتحري هو التعمد وقصد الصلاة في هذا الوقت، وهذا لا يكون إلا في التطوع المطلق، وأما ماله سبب فلم يتحره المصلي بل فعله لأجل سببه، وهذا اللفظ المقيد في هذا الحديث يفسر سائر الألفاظ، ولو كان النهي عن النوعين لم يكن لتخصيص التحري فائدة، وكان الحكم قد علق بوصف عديم التأثير. (مجموع الفتاوى)

هـ–أن أحاديث النهي عامة، وأحاديث ذوات السبب خاصة، والخاص مقدم على العام.

و–أن الصلوات ذات السبب مقرونة بسبب فيبعد أن يقع فيها الاشتباه في مشابهة المشركين، لأن النهي عن الصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها لئلا يتشبه المصلي المسلم بالمشركين، فإذا كانت الصلاة لها سبب معلوم، كانت المشابهة بعيدة.

ك-استدلوا بالإجماع على جواز الصلاة على الجنازة بعد العصر وبعد الصبح إذا لم يكن عند الطلوع وعند الغروب (وقد نقل الإجماع: الشافعي، وابن المنذر، والنووي، وابن قدامة).

وهذا القول هو الصحيح.

٧ - اختلف العلماء هل هناك وقت نهي قبل الزوال يوم الجمعة أم لا على قولين:

القول الأول: أن وقت الزوال وقت نهي إلا يوم الجمعة فتجوز الصلاة فيه.

وهذا مذهب الشافعي، ورجحه ابن تيمية وابن القيم والشيخ ابن باز.

أ-لحديث أبي قتادة عن النبي ﷺ (أنه كره الصلاة نصف النهار إلا يوم الجمعة، وقال: إن جهنم تسجر إلا يوم الجمعة) رواه أبو داود، وهو حديث ضعيف، فيه ليث بن أبي سليم، وفيه انقطاع.

ب-ولحديث أبي هريرة (أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة نصف النهار حتى تزول الشمس إلا يوم الجمعة) رواه الشافعي، وهو حديث ضعيف لا يصح.

ج-ولحديث سَلْمَان الْفَارِسِي قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (لاَ يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ ثُمَّ يَخْرُجُ، فَلاَ يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الإِمَامُ، إِلاَّ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الأُخْرَى) رواه البخاري.

وجه الدلالة: فقوله (ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ ...) يدل على استمرار الصلاة إلى الزوال.

قال ابن القيم: فَنَدَبَهُ إِلَى الصّلَاةِ مَا كُتِبَ لَهُ وَلَمْ يَمْنَعْهُ عَنْهَا إلّا فِي وَقْتِ خُرُوجِ الْإِمَامِ وَلِهَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السّلَفِ مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ ﷺ وَتَبِعَهُ عَلَيْهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: خُرُوجُ الْإِمَامِ يَمْنَعُ الصّلَاةَ وَخُطْبَتُهُ تَمْنَعُ الْكَلَامَ، فَجَعَلُوا الْمَانِعَ مِنْ الصّلَاةِ خُرُوجَ الْإِمَامِ لَا انْتِصَافَ النّهَارِ. (زاد المعاد)

د- وَأَيْضًا: فَإِنّ النّاسَ يَكُونُونَ فِي الْمَسْجِدِ تَحْتَ السّقُوفِ وَلَا يَشْعُرُونَ بِوَقْتِ الزّوَالِ وَالرّجُلُ يَكُونُ مُتَشَاغِلًا بِالصّلَاةِ لَا يَدْرِي بِوَقْتِ الزّوَالِ وَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَخْرُجَ وَيَتَخَطّى رِقَابَ النّاسِ وَيَنْظُرَ إلَى الشّمْسِ وَيَرْجِعُ وَلَا يُشْرَعُ لَهُ ذَلِكَ.

هـ- بعض العلماء استدل بأن الأحاديث الواردة في الباب والتي فيها استثناء يوم الجمعة وإن كان فيها مقال، لكن باجتماعها يقوي بعضها بعضاً كما قال البيهقي ومن بعده الحافظ ابن حجر والشيخ ابن باز.

قال الحافظ ابن حجر في حديث أبي قتادة السابق: وفي إسناده انقطاع، وقد ذكر له البيهقي شواهد ضعيفة، إذا ضمت قوي الخبر.

القول الثاني: أن وقت الزوال وقت نهي مطلقاً يوم الجمعة كغيره.

وهذا مذهب أبي حنيفة وأحمد، وعزاه ابن حجر للجمهور.

أ-لحديث عُقْبَة بْن عَامِر قال (ثَلَاثُ سَاعَاتٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْهَانَا أَنْ نُصَلِّي فِيهِنَّ، وَأَنْ نَقْبُرَ فِيهِنَّ مَوْتَانَا: حِينَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ بَازِغَةً حَتَّى تَرْتَفِعَ، وَحِينَ يَقُومُ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ ...).

ب- وَلحديث عمرو بن عَبَسة قال (قلت يا رسول الله! أَخْبِرْنِي عَنِ الصَّلاَةِ قَالَ: صَلِّ صَلاَةَ الصُّبْحِ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلاَةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ الصَّلاَةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمْحِ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلاَةِ فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ، فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيءُ فَصَلِّ، فَإِنَّ الصَّلاَةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلاَةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ) رواه مسلم.

وجه الدلالة من الحديثين: أن وقت الزوال معدود في الأوقات المنهي عن الصلاة فيها، ولم يفرق بين يوم وآخر.

وهذا القول هو الصحيح.

٨ – اختلف العلماء في صلاة الاستخارة هل تعتبر من ذوات الأسباب فتصلى في وقت النهي أم لا؟

والصواب في هذا: أن الاستخارة إذا كانت لأمر يفوت بحيث لا يمكن من تأجيل الصلاة فإنها تصلى في وقت النهي، كما لو عرض له السفر بعد صلاة العصر، وأما إن كانت لأمر لا يفوت بحيث يمكن تأجيل الصلاة إلى ما بعد انتهاء وقت النهي فإنها لا تصلى في وقت النهي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وتقضى السنن الراتبة ، ويفعل ما له سبب في أوقات النهي ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد، واختيار جماعة من أصحابنا وغيرهم ، ويصلي صلاة الاستخارة وقت النهي في أمر يفوت بالتأخير إلى وقت الإباحة ويستحب أن يصلي ركعتين عقب الوضوء ولو كان وقت النهي ، وقاله الشافعية " انتهى.

وسئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: هل يصلي الإنسان صلاة الاستخارة في وقت النهي؟

فأجاب: صلاة الاستخارة إن كانت لأمر مستعجل لا يتأخر حتى يزول النهي فإنها تفعل، وإن كانت لسبب يمكن أن يتأخر فإنه يجب أن تؤخر. ... (فتاوى ابن عثيمين: ١٤/ ٢٧٥)

٩ – الأصل أن صلاة التطوع مشروعة في كل وقت.

أ–لعموم قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

ب–وعن ربيعة بن كعب ﷺ قال (قال لي رسول الله ﷺ سل. فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة؟ قال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك. قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود) رواه مسلم.

فائدة:

عن سعيد بن المسيب (أنه رأى رجلاً يصلي بعد طلوع الفجر أكثر من ركعتين يكثر فيها الركوع والسجود فنهاه فقال: يا أبا محمد، يعذبني الله على الصلاة، قال: لا، ولكن يعذبك على خلاف السنة) رواه الدارقطني.

فائدة :

قال ابن قدامة: فَصْلٌ: وَلَا فَرْقَ بَيْنَ مَكَّةَ وَغَيْرِهَا فِي الْمَنْعِ مِنْ التَّطَوُّعِ فِي أَوْقَاتِ النَّهْيِ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: لَا يُمْنَعُ فِيهَا، لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لَا تَمْنَعُوا أَحَدًا طَافَ بِهَذَا الْبَيْتِ وَصَلَّى فِي أَيِّ سَاعَةٍ شَاءَ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ بَعْدَ الصُّبْحِ إلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَلَا بَعْدَ الْعَصْرِ إلَى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ، إلَّا بِمَكَّةَ يَقُولُ: قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثًا) رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ.

وَلَنَا عُمُومُ النَّهْيِ، وَأَنَّهُ مَعْنًى يَمْنَعُ الصَّلَاةَ، فَاسْتَوَتْ فِيهِ مَكَّةُ وَغَيْرُهَا، كَالْحَيْضِ، وَحَدِيثُهُمْ أَرَادَ بِهِ رَكْعَتَيْ الطَّوَافِ، فَيَخْتَصُّ بِهِمَا، وَحَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ ضَعِيفٌ، يَرْوِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُؤَمَّلِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، قَالَهُ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ.

فائدة:

جاء في فتاوى اللجنة الدائمة: نعم، يجوز سجود التلاوة في أوقات النهي عن الصلاة، على الصحيح من قولي العلماء؛ لأنه ليس له حكم الصلاة، ولو فرضنا أن له حكم الصلاة جاز فعله في وقت النهي؛ لأنه من ذوات الأسباب، كصلاة الكسوف وركعتي الطواف لمن طاف في وقت النهي.

عَنْ أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ قَالَ (صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَصْرَ بِالْمُخَمَّصِ فَقَالَ : إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ عُرِضَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَضَيَّعُوهَا فَمَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ وَلاَ صَلاَةَ بَعْدَهَا حَتَّى يَطْلُعَ الشَّاهِدُ)

==========

(**صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَصْرَ بِالْمُخَمَّصِ**) المُخمّص طريق في جبل عير إلى مكة .

(**فَقَالَ : إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ**) صلاة العصر .

قال النووي: هذه الصلاة هي صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى عند جماهير العلماء .

(**عُرِضَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**) أي : اليهود والنصارى .

(**فَضَيَّعُوهَا**) أي: ما قاموا بحقِّها، وما حافظوا على مراعاتها، فأهلكهم الله تعالى، فاحذروا أن تكونوا مثلهم؛ ولذا قال تعالى (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى) أي: العصر على الصحيح خُصَّتْ بالمحافظة.

فَمَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ) مضاعفاً .

(**وَلاَ صَلاَةَ بَعْدَهَا**) أي : بعد صلاة العصر .

(**حَتَّى يَطْلُعَ الشَّاهِدُ**) قال الحافظ ابن رجب -رَحِمَهُ اللَّهُ-: اختلف العلماء في تأويل قوله: "حتى يطلع الشاهد"، فمنهم من حمله على كراهة التنفّل قبل المغرب حتى تُصلَّي، وهو قول من كَرِهَ ذلك من العلماء، وقال: قوله: "لا صلاة بعدها" إنما هو نهي عن التنفّل بعد العصر، فيستمرّ النهي حتى يُصلِّي المغربَ، فإذا فَرَغ منها جاز التنفّل، وحينئذ تطلُع النجوم غالبًا.

ومنهم: من قال: إنما أراد أن النهي يزول بغروب الشمس، وإنما علّقه بطلوع الشاهد؛ لأنه مظنّةٌ له، والحكم يتعلّق بالغروب نفسه.

ومنهم من زعم أن الشاهد نجم خفيٌّ يراه من كان حديد البصر بمجرّد غروب الشمس، فرؤيته علامة لغروبها.

وزعم بعضهم أن المراد بالشاهد الليل، وفيه بُعْدٌ.

١-فضل المحافظة على صلاة العصر .

قال النووي -رحمه الله- فيه: فضيلة العصر وشدَّة الحثِّ عليها .

وقال الصنعاني -رحمه الله-:الحديث دالٌّ على أجر المحافظة على صلاة العصر

٢-أن من حافظ عليها فله الأجر مرتين .

قال الطيبي -رحمه الله- قوله: «أجره مرّتين» أقول: إحداهما: للمحافظة عليها؛ خلافًا لمن قبلهم، وثانيتهما: أجر عمله كسائر الصلاة.

وقال الملا علي القاري -رحمه الله- أو أجر للمحافظة على العبادة، وأجر لترك البيع والشراء بالزهادة، فإن وقت العصر كان زمان سوقهم وأوان شغلهم .

وقال الملا علي القاري -رحمه الله- أيضًا: قال ابن حجر (الهيتمي): مرَّة لفضلها؛ لأنها الوسطى، ومرَّة للمحافظة عليها، ومشاركة بقية الصلوات لها في هذا لا تؤثِّر في تخصيصها بمجموع الأمرين.

وقال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- (فمن حافظ عليها كان له أجره مرتين) يشعر بتأكُّدِها على غيرها، وذلك مما يدل على أنها الصلاة الوسطى .

٣-قوله (**عرضت عليهم فضيعوها**) .

-معنى العرض: «عُرضت» هنا بمعنى أُمروا بها، وفُرضت عليهم، وأُلزموا بالمحافظة عليها كبقية شرائعهم .

وكيفية تضييعهم لها:

الترك بالكلية: تركوا أداءها تكاسلاً واشتغالاً بأمور دنياهم، كما قال الله تعالى (فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا) .

إخراجها عن وقتها: تأخيرها حتى تغرب الشمس أو التهاون في إقامتها على الوجه المأمور به .

قال ابن عبد البر والقرطبي: عُرضت عليهم إما بأمر أنبيائهم وإما بفرضها عليهم فتهاونوا بها وتركوا إقامتها في أوقاتها، فضاعت منهم كغيرها من شرائعهم .

وقال السنوسي: تضييعها إما بتركها أصلاً، أو بتفويت وقتها المشروع وتأخيرها .

٤-الحديث دليل على النهي عن الصلاة بعد العصر .

قال الصنعاني : ... وعلى أنه لا صلاة بعدها إلى غروب الشمس، وأما ما ورد من أنه ﷺ كان يصلي بعد العصر ركعتين، فإنه قد بيَّن سببها، وهو أنه ﷺ أتاه مال فشغله تفريقه عن ركعتي الظهر، ثم قضاهما بعد العصر، ثم استمر عليهما، وورد أنها قالت له أم سلمة: أنه هل يقضي أحد ركعتي الظهر بعد العصر كما صنع؟ فقال: لا .

٥-التحذير من إضاعة الصلاة .

٦- الترهيب من التشبه بالأمم السابقة الذين ضيّعوا صلواتهم، والحث على الحذر من التفريط فيها .

٧-شرف هذه الأمة وفضلها واختصاصها بكرامة مضاعفة الأجر والثواب عند القيام بما ثقل وفرّط فيه غيرها .

٨-أن الصلاة ميزان صدق العبد؛ فمن أحب الله حرص على أداء ما افترضه عليه.

٩-المداومة أهم من النشاط المؤقت؛ فالحديث مدح من (حافظ) على الصلاة، أي استمر عليها ولم يكن متقطعًا.

١٠-العبادة تحتاج إلى المحافظة لا إلى البداية فقط؛ فقد يبدأ الإنسان بطاعة ثم يتركها، أما المؤمن فيجاهد نفسه على الاستمرار.

١١-تضييع الصلاة ليس أمرًا يسيرًا؛ ولذلك جاء التحذير منه في القرآن والسنة.

عن عمرو بن عَبَسَة –بفتح العين والباءِ– السُّلَمِيّ ﷺ قَالَ (كُنْتُ وَأَنَا فِي الجاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلاَلَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيهِ، فإِذَا رسولُ الله ﷺ مُسْتَخْفِيًا، جُرَآءُ عَلَيهِ قَومُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ» قُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي اللهُ» قُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لاَ يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ»، قُلْتُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: «حُرٌّ وَعَبْدٌ»، ومعه يَوْمَئذٍ أَبُو بكرٍ وبلالٌ – رضي الله عنهما، قُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ: «إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ ذلِكَ يَومَكَ هَذَا، أَلاَ تَرَى حَالِي وحالَ النَّاسِ؟ وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي ، قَالَ: فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي، وقَدِمَ رَسُول الله ﷺ المَدِينَةَ حَتَّى قَدِمَ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِي المَدِينَةَ، فقُلتُ: مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ المَدِينَةَ؟ فقالوا: النَّاسُ إِلَيهِ سِرَاعٌ، وَقَدْ أَرادَ قَومُهُ قَتْلَهُ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذلِكَ، فقَدِمْتُ المدينَةَ، فَدَخَلْتُ عَلَيهِ، فقُلتُ: يَا رَسُول الله أَتَعْرِفُنِي؟ قَالَ: «نَعَمْ، أَنْتَ الَّذِي لَقِيْتَنِي بمكَّةَ» قَالَ: فقلتُ: يَا رَسُول الله، أَخْبِرنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللهُ وأَجْهَلُهُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الصَّلاَةِ؟ قَالَ: «صَلِّ صَلاَةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ اقْصُرْ عَنِ الصَّلاَةِ حَتَّى تَرْتَفِعَ الشَّمْسُ قِيدَ رُمْحٍ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيطَان، وَحينَئذٍ يَسجُدُ لَهَا الكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ الصَلاَةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بالرُّمْحِ، ثُمَّ اقْصُرْ عَنِ الصَّلاةِ، فَإِنَّهُ حينئذ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ، فإِذَا أَقْبَلَ الفَيْءُ فَصَلِّ، فَإِنَّ الصَّلاةَ مَشْهُودَةٌ مَحضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّي العصرَ، ثُمَّ اقْصُرْ عَنِ الصَّلاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، فإِنَّهَا تَغْرُبُ بينَ قَرْنَيْ شَيطانٍ، وَحِينَئذٍ يَسْجُدُ لَهَا الكُفّارُ» قَالَ: فقلتُ: يَا نَبِيَّ الله، فالوضوءُ حدثني عَنْهُ؟ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءهُ، فَيَتَمَضْمَضُ وَيسْتَنْشِقُ فَيَسْتَنْثِرُ، إِلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ المَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيهِ إِلَى المِرفَقَيْن، إِلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الماءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ، إِلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الماءِ، ثُمَّ يغسل قدميه إِلَى الكَعْبَيْنِ، إِلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا رِجلَيْهِ مِنْ أَنَاملِهِ مَعَ الماءِ، فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى، فَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى، وأَثنى عَلَيهِ ومَجَّدَهُ بالَّذي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قلبه للهِ تَعَالَى، إِلاَّ انْصَرفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كهيئته يَومَ وَلَدتهُ أُمُّهُ) .

==========

(**عن عمرو بن عَبَسَة**) هو: عمرو بن عبسة –بموحّدة، ومهملتين مفتوحات– ابن عامر بن خالد بن غاضرة بن عَتّاب بن امرئ القيس بن بهثة بن سُلَيم السُّلَميّ، أبو نَجِيح، وقيل: أبو شُعيب، وقيل غير ذلك في نسبه، أسلم قديمًا بمكة، وكان أخا أبي ذرّ لأمه.

(**قَالَ: كُنْتُ وَأَنَا فِي الجاهِلِيَّةِ**) فترة ما قبل الإسلام.

(**أَظُنُّ**) أعلم وأتيقن.

(**أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلاَلَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ**) من الدين الحق.

(**وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ**) يريد النبي ﷺ .

(**بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا**) أي: من الوحي السماويّ.

(**فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيهِ**) أي: على ذلك الرجل.

(**فإِذَا رسولُ الله ﷺ مُسْتَخْفِيًا**) أي: متواريًا، ومستترًا عن المشركين؛ لئلا يُلحقوا عليه ضررًا.

(**جُرَآءُ عَلَيهِ قَومُهُ**) **قال النوويّ** –رَحِمَهُ اللَّهُ–: هكذا هو في جميع الأصول " جُرَآءُ" بالجيم المضمومة، جمع جَرِيء بالهمز من الجرأة، وهي الإقدام والتسلّط، وهذا هو سرّ استخفائه.

وقال القرطبيّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: قوله (جُرآء عليه قومه) أي: يجترئون عليه، من الجُرْأة.

(فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيهِ بِمَكَّةَ) أي: ترفّقت، وتحيّلتُ في الدخول عليه.

(فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟) قال النوويّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: هكذا هو في الأصول: "ما أَنت؟ "، وإنما قال: "ما أنت"، ولم يقل: "من أنت؟؛ لأنه سأله عن صفته، لا عن ذاته، والصفات مما لا يعقل. انتهى.

(قُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ) فيه أهمية صلة الرحم.

(قُلْتُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟) أي: فمن تبعك على هذا الدين الذي أرسلك الله تعالى به من الناس.

(قَالَ: حُرٌّ وَعَبْدٌ) أي: معي حر وعبد.

(قال) عمر بن عبسة.

(ومعه يَوْمَئِذٍ أَبُو بكرٍ) الصديق.

(وبلالٌ) هو ابن رباح مؤذّن رسول الله ﷺ، مولى أبي بكر الصَدّيق -رضي الله عنهما-.

(قُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ) قال النوويّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: معناه إني متّبعك على إظهار الإسلام هنا، وإقامتي معك. .

وقال القرطبيّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: قوله: "إني متّبعك" معناه: أصحبك، وأكون معك في موضعك، ولذلك أجابه بقوله: "إنك لا تستطيع يومك هذا"، ولم يردّ عليه إسلامه، وإنما ردّ عليه كونه معه.

(قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ ذلِكَ يَومَكَ هَذَا) أي: لقوّة شوكة المشركين، وضعف حال المسلمين، فأخاف عليك أن يلحقك منهم ضرر.

(أَلاَ تَرَى حَالي) من قلة الأعوان.

(وحالَ النَّاسِ؟) من قوة شوكتهم.

(وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فأتني) أي: غلبت على المشركين، وانتشرت الدعوة في الأرض.

(قَالَ: فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي، وقَدِمَ رَسُول الله ﷺ المَدِينَةَ) أي: بعد أن مكث في مكة نبيًّا مرسلًا ثلاثة عشر عامًا يدعو الناس إلى التوحيد، ونبذ الشرك.

(حَتَّى قَدِمَ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِي المَدِينَةَ، فقُلتُ: مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ المَدِينَةَ؟) يريد النبيّ ﷺ ، وإنما أخرج السؤال هذا المخرج؛ تعميةً لحاله على المسؤولين؛ خشية أن يكونوا من أعدائه ﷺ فلا يُخبرونه بحقيقة الأمر إذا علموا أنه على دينه، وهذا من فقه عمرو بن عبسة ﷺ، وقوّة فطنته وذكائه.

(فقالوا: النَّاسُ إِلَيهِ سِرَاعٌ) بكسر السين المهملة، وتخفيف الراء؛ أي: مسرعون إلى الإيمان بالنبيّ ﷺ واتباع دينه.

(فقَدِمْتُ المدينَةَ، فَدَخَلْتُ عَلَيهِ، فقُلتُ: يَا رَسُول الله أَتَعْرِفُنِي؟ قَالَ: «نَعَمْ، أَنْتَ الَّذِي لَقَيْتَنِي بمكَّةَ، فَقُلْتُ: بَلَى) أي: أنا الذي لقيتك بها.

(قَالَ: فقلتُ: يَا رَسُول الله، أَخْبِرنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللهُ وأَجْهَلُهُ) قال النوويّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: هكذا هو: "عما علّمك"، وهو صحيحٌ، ومعناه: أخبرني عن حكمه وصفته، وبيّنه لي.

(أَخْبِرْنِي عَنِ الصَّلاَةِ؟) أي: عن وقتها الجائزة فيه بدليل الجواب، وقال القرطبيّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: هذا سؤال عن تعيين الوقت الذي يجوز التنفّل فيه من الوقت الذي لا يجوز، وإنما قلنا ذلك؛ لأنه ﷺ فَهِمَ عنه ذلك، فأجابه به، ولو كان سؤاله عن غير ذلك لما كان جوابه مطابقًا للسؤال.

(**قَالَ: صَلِّ صَلاَةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ اقْصُرْ عَنِ الصَّلاَةِ**) بقطع الهمزة، من الإقصار؛ أي: انته، وكُفّ عنها.

(**حَتَّى تَرْتَفِعَ الشَّمْسُ قِيدَ رُمْحٍ**) أي: قدر رمح.

(**فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيطَان**) قِيلَ: الْمُرَاد بِقَرْنِهِ: أُمَّته وَشِيعَته، وَقِيلَ: قَرْنه: جَانِب رَأْسه، وَهَذَا ظَاهِر الْحَدِيث فَهُوَ أَوْلَى، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ يُدْنِي رَأْسه إِلَى الشَّمْس فِي هَذَا الْوَقْت لِيَكُونَ السَّاجِدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ الْكُفَّار فِي هَذَا الْوَقْت كَالسَّاجِدِينَ لَهُ، وَحِينَئِذٍ يَكُون لَهُ وَلِشِيعَتِهِ تَسَلُّط وَتَمَكُّن مِنْ أَنْ يُلَبِّسُوا عَلَى الْمُصَلِّي صَلَاته؛ فَكُرِهَتْ الصَّلَاة فِي هَذَا الْوَقْت لِهَذَا الْمَعْنَى. (نووي)

(**وَحِينَئِذٍ يَسجُدُ لَهَا الكُفَّارُ**) أي: الذين يعبدونها.

(**ثُمَّ**) بعد ارتفاع الشمس قدر رُمح

(**صَلِّ**) أي: ما شئت، ففي رواية أبي داود (ثم صلّ ما شئت) وعند ابن ماجه (فصلّ ما بدا لك).

(**فَإِنَّ الصَلاَةَ**) أي: بعد ارتفاع الشمس، أو الصلاة المشروعة.

(**مَشْهُودَةٌ مَحْضُورةٌ**) **قال النوويّ** -رَحِمَهُ اللَّهُ-: أي: تحضرها الملائكة، فهي أقرب إلى القبول، وحصول الرحمة، وقال القاري -رَحِمَهُ اللَّهُ-: أي: يحضرها الملائكة؛ ليكتبوا أجرها، ويشهدوا بها لمن صلّاها، ويؤيّده أن في رواية أبي داود: "مشهودة مكتوبة"، وقال الطيبيّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: أي: يحضرها أهل الطاعة، من سكان السماء والأرض، وعلى المعنيين، فـ "محضورة" تفسير لـ "مشهودة"، وتأكيد لها، ويَحْتَمل أن يُجعل "مشهودة" على المعنى الأول، و"محضورة" على الثاني، أو الأولى بمعنى الشهادة، والثانية بمعنى الحضور للتبرّك، والتأسيس أولى من التأكيد. انتهى كلام القاري -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

(**حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بالرُّمْحِ**) وفي رواية لأحمد، وهي عند ابن ماجه أيضًا: "حتى يقوم العمود على ظله".

قال السنديّ: العمود: خشبة يقوم عليها البيت، والمراد حتى يبلغ الظل في القلة بحيث لا يظهر إلَّا تحت العمود، ومحلّ قيامه، فيصير كأن العمود قائم عليه، والمراد وقت الاستواء.

(**ثُمَّ اقْصُرْ عَنِ الصَّلاةِ، فَإِنَّهُ حينئذ**) أي: حين يستقلّ الظلّ بالرمح.

(**تُسْجَرُ جَهَنَّمُ**) بالتخفيف والتشديد مبنيًّا للمجهول؛ أي: يوقد عليها إيقادًا بليغًا.

(**فإذَا أَقْبَلَ الفَيْءُ**) أي: ظهر إلى جهة المشرق، و"الفيء" مختصّ بما بعد الزوال.

(**فَصَلِّ**) أي: أيَّ صلاة تريدها.

(**فَإِنَّ الصَّلاةَ مَشْهُودَةٌ مَحضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّي العصرَ**) أي: فرض العصر.

(**ثُمَّ اقْصرْ عَنِ الصَّلاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ**) بالكلية.

(**قَالَ: فقلتُ: يَا نَبِيَّ الله، فالوضوءُ حدثني عَنْهُ؟**) أي: خبرني عن فضله.

(**فَقَالَ: مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءهُ**) بضمّ أوله، وفتح ثانيه، وتشديد الراء، من التقريب.

(**فَيَتَمَضْمَضُ وَيسْتَنْشِقُ فَيَسْتَنْثِرُ، إلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ**) معنى "خَرَّت" بالخاء: أي: سقطت، وهو كناية عن مغفرة الذنوب، ومعنى "جَرَت" أي؛ ذهبت ذنوب وجهه مع ماء الوضوء، والمراد من الخطايا هي الصغائر عند عامّة العلماء.

١ - الحديث فيه منقبة ظاهرة لهذا الصحابي الكريم؛ حيث كان منذ الجاهلية ذا عقل رشيد وتفكير سليم وشخصية قوية وإخلاص في طلب الحق؛ فلم يرضَ عبادة الأصنام ولا تعظيم الأوثان، ولم تعجبه عقائد الجاهلية، ولم يكن إمَّعة يُساير الناس في ضلالهم، بل كان ينتظر ظهور الدين الحق، فلما أن بَلَغَه رحل إلى صاحبه واستوثق منه، فآمَنَ دون إبطاء.

٢ – فيه أن كثيرًا من العرب في الجاهلية كانوا على الفطرة السليمة التي لم تفسد، وكانوا مستعدين للانضمام إلى دعوة الحقّ حينما تظهر، وهؤلاء كانوا مادة الإسلام وأنصاره وسواده الأعظم.

٣ – أن النبي ﷺ كان على علم أكيد بأنه منتصر، وأن العاقبة له، وأن دعوته هي الغالبة، وذلك ظاهر في قوله عليه السلام لعمرو: (فامكث في أهلك حتى يمكّن لرسوله، فإذا سمعت بي قد ظهرتُ فالحَقْ بي).

٤ – مصداق لقول ﷺ (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً ...).

٥ – الحديث دليل على أن أبا بكر أول من أسلم، ويدل لذلك:

أ–لحديث الباب (قُلْتُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: حُرٌّ وَعَبْدٌ، ومعه يَوْمَئِذٍ أَبُو بكرٍ وبلالٌ).

ب–عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قال: قال النَّبِيُّ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَتَ وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي مَرَّتَيْنِ فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا) رواه البخاري.

ج–عن عمار. قال (رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا مَعَهُ إِلاَّ خَمْسَةُ أَعْبُدٍ وَامْرَأَتَانِ، وَأَبُو بَكْرٍ) رواه البخاري.

قال ابنُ حَجَرٍ: في هَذا الحَديثِ أنَّ أبا بَكْرٍ أوَّلُ من أسلَمَ مِنَ الأحرارِ مُطلَقًا، ولَكِن مُرادُ عَمَّارٍ بذلك مِمَّن أظهَرَ إسلامَهُ، وإلَّا فقَد كانَ حينَئِذٍ جَماعةٌ مِمَّن أسلَمَ لكِنَّهم كانوا يُخفُونَهُ من أقارِبِهم.

٦ – قوله (حر وعبد) قال القرطبيّ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: إنما لم يذكر النبيّ ﷺ له عليًّا رضي الله عنه؛ لصغره، فإنه أسلم وهو ابن سبع سنين، وقيل: ابن عشر، ولم يذكر خديجة –رضي الله عنها– أيضًا؛ لأنه فهم منه أنه إنما سأله عن الرجال، فأجابه حسب ذلك، ويُشكل هذا الحديث بحديث سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه، فإنه قال: "ما أسلم أحدٌ إلَّا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام، وإني لثلث الإسلام"، وظاهره أن أبا بكر وبلالًا أسلما في اليوم الذي أسلم فيه سعد، وأنه أقام سبعة أيام لَمْ يُسلم مع الثلاثة أحدٌ، وحينئذ يلزم أن يكون مع النبيّ ﷺ يوم جاء عمرو بن عَبَسَة أبو بكر، وسعد، وبلالٌ، لكن سكت النبيّ ﷺ عن سعد إما نسيانًا، وإما لعدم حضوره إذ ذاك بمكة، أو لأمر آخر.

٧ – قوله (**وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي**) فيه علمٌ من أعلام النبوّة، ومعجزة من معجزات النبيّ ﷺ ، حيث أخبر عمرو بن عبسة بأنه سيظهر على قومه الجُرآء عليه، ويقهرهم، ويُخمِد نارهم، ويَظْهَر منتصرًا على أرض الله –عَزَّ وَجَلَّ– جميعها، فوقع كما أخبر به، كما وعد الله تعالى بذلك حيث قال: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) وقال (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) وقال (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ).

٨ .– ثقةُ النبي ﷺ بربه، وأنه سينصره ويُظهِرُ دينَه.

٩ – إثبات أن دعوة النبي ﷺ كانت سرية في أول الأمر.

١٠ – فضل بلال بن رباح وأنه من السابقين إلى الإسلام.

١١ – أهمية صلة الرحم.

١٢ – لما كانت صلة الأرحام من الأخلاق التي يعظمها العرب قدَّمها في الذكر، مبيّنًا أنه لم يُبعث لهدم ما كان عليه العرب من الخير والأخلاق الحسنة، وإنما بُعث ليُتمِّمها ويدعوَ إليها، وتقديم المهمّ على الأهم جائزٌ عند الحاجة إليه.

١١ – في القصة بيان أوقات النهي الثلاثة: بعد صلاة الصبح حتى ترتفع الشمس – حين تكون الشمس في كبد السماء – بعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس.

١٢ – في الحديث بيان علة النهي عن الصلاة في هذه الأوقات الثلاثة، وهو أن الشمس تطلع وتغرب بين قرني شيطان، ويسجد لها الكفَّار، وقد نُهي عن التشبُّه بهم.

١٣ – فضل الصلاة وقت الضحى، ذلك أن الملائكة تشهدها وتحضر

١٤ – فضل عظيم لمن توضأ كما أُمر وصلى صلاة فرغ قلبه فيها لله تعالى، فعقل ما يقول ويفعل، وأن جزاءه محو ذنوبه كلها، فمن لم يستطع الحج الذي يخرج منه كيوم ولدته أمه، فهذا بديل قليل الجهد قصير الوقت عظيم الأجر.

١٥–الفطرة السليمة تدعو إلى توحيد الله .

١٦–فضل البحث عن الحق وطلب الهداية ، فلم يكتفِ عمرو بما وجد عليه قومه، بل بحث وسافر حتى وصل إلى النبي ﷺ، وفي ذلك حثٌّ على طلب الحق وعدم الاستسلام للتقليد.

١٧–أن أساس دعوة الأنبياء هو توحيد الله .

١٨–تحريم الشرك ووجوب البراءة من عبادة غير الله .

١٩–قوله ﷺ (وكسر الأوثان) يدل على إبطال عبادة الأصنام وكل ما عُبد من دون الله.

٢٠–الصبر والثبات في طريق الدعوة .

٢١–مشروعية السؤال عما يجهله المسلم .

٢٢–عظم شأن الصلاة .

٢٣–النهي عن الصلاة في أوقات النهي .

٢٤–فضل الصلاة في الأوقات التي تشهدها الملائكة .

٢٥–فضل الوضوء وتكفيره للخطايا .

٢٦–فضل إتقان الوضوء وإسباغه .

٢٧–فضل الصلاة بعد الوضوء مع الإخلاص .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ (مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ عِنْدِي قَطُّ) .

[خ : ٥٩١] .

وعنها قالت (صَلاَتَانِ مَا تَرَكَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِي قَطُّ سِرًّا وَلاَ عَلاَنِيَةً رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ) .

[خ : ٥٩٢] .

وعن أم سَلَمَةَ قالت (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْهَى عَنْهُمَا –الركعتين بعد العصر– ثُمَّ رَأَيْتُهُ يُصَلِّيهِمَا أَمَّا حِينَ صَلاَّهُمَا فَإِنَّهُ صَلَّى الْعَصْرَ ثُمَّ دَخَلَ وَعِنْدِي نِسْوَةٌ مِنْ بَنِي حَرَامٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَصَلاَّهُمَا فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ الْجَارِيَةَ فَقُلْتُ قُومِي بِجَنْبِهِ فَقُولِي لَهُ تَقُولُ أُمُّ سَلَمَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَسْمَعُكَ تَنْهَى عَنْ هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ وَأَرَاكَ تُصَلِّيهِمَا فَإِنْ أَشَارَ بِيَدِهِ فَاسْتَأْخِرِي عَنْهُ – قَالَ – فَفَعَلَتِ الْجَارِيَةُ فَأَشَارَ بِيَدِهِ فَاسْتَأْخَرَتْ عَنْهُ فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ : يَا بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ سَأَلْتِ عَنِ الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ إِنَّهُ أَتَانِي نَاسٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ بِالإِسْلاَمِ مِنْ قَوْمِهِمْ فَشَغَلُونِي عَنِ الرَّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ فَهُمَا هَاتَانِ) .

[خ : ١٢٣٣] .

عن أبي سَلَمَةَ (أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنِ السَّجْدَتَيْنِ اللَّتَيْنِ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّيهِمَا بَعْدَ الْعَصْرِ فَقَالَتْ كَانَ يُصَلِّيهِمَا قَبْلَ الْعَصْرِ ثُمَّ إِنَّهُ شُغِلَ عَنْهُمَا أَوْ نَسِيَهُمَا فَصَلاَّهُمَا بَعْدَ الْعَصْرِ ثُمَّ أَثْبَتَهُمَا وَكَانَ إِذَا صَلَّى صَلاَةً أَثْبَتَهَا) .

==========

(**سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْهَى عَنْهُمَا**) أي : صلاة الركعتين بعد العصر .

(**ثُمَّ رَأَيْتُهُ يُصَلِّيهِمَا أَمَّا حِينَ صَلاَّهُمَا فَإِنَّهُ صَلَّى الْعَصْرَ**) في المسجد .

(**ثُمَّ دَخَلَ**) أي : بيت أم سلمة .

(**وَعِنْدِي نِسْوَةٌ مِنْ بَنِي حَرَامٍ مِنَ الأَنْصَارِ**) حَرَام بفتح الحاء والراء .

(**فَصَلاَّهُمَا فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ الْجَارِيَةَ فَقُلْتُ قُومِي بِجَنْبِهِ**) ﷺ .

(**فَقُولِي لَهُ تَقُولُ أُمُّ سَلَمَةَ**) **قال النوويّ** –رَحِمَهُ اللَّهُ–: إنما قالت عن نفسها: "تقول أم سلمة"، فكَنَت نفسها، ولم تقل: هند باسمها؛ لأنَّها معروفة بكنيتها .

(**يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَسْمَعُكَ تَنْهَى عَنْ هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ**) اللتين بعد العصر .

(**وَأَرَاكَ تُصَلِّيهِمَا**) أي: فما السرّ في ذلك .

(**فَإِنْ أَشَارَ بِيَدِهِ فَاسْتَأْخِرِي عَنْهُ**) أي : تأخري عن جنبه ﷺ .

(**فَلَمَّا انْصَرَفَ**) أي : سلم من صلاته .

(**قَالَ**) ﷺ للجارية لتقول لأم سلمة .

(**يَا بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ**) هو والد أم سلمة، واسمه حُذيفة، وقيل: سُهيل بن المغيرة المخزوميّ، وكان يلقّب زاد الراكب؛ لأنه كان أحد الأجواد، فكان إذا سافر لا يترك أحدًا يرافقه، ومعه زادٌ، بل يكفي رُفقته من الزاد .

سَأَلْتِ عَنِ الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ) سبب صلاتي لهما .

(**إِنَّهُ أَتَانِي نَاسٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ بِالإِسْلاَمِ مِنْ قَوْمِهِمْ فَشَغَلُونِي**) وللطحاويّ من وجه آخر (قَدِمَ عليّ قلائص من الصدقة، فنسيتهما، ثم ذكرتهما، فكرهت أن أصليهما في المسجد، والناس يرون، فصليتهما عندك)، وله من وجه آخر (فجاءني مالٌ، فشغلني) .

(**فَشَغَلُونِي عَنِ الرَّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ فَهُمَا هَاتَانِ**) أي: الركعتان اللتان صلّيتهما بعد العصر هما الركعتان اللتان كنت أصليهما بعد صلاة الظهر، قضيتهما الآن بعد العصر.

١-اختلف العلماء: هل تقضى السنن الرواتب في وقت النهي أم لا على أقوال.

والراجح من أقوال العلماء: أنَّ السُّنن الرواتب تقضى في الأوقات المنهي عنها.

وهو مذهب الشَّافعي، ورواية عند الحنابلة، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحم الله الجميع.

أ- لحديث أنس بن مالك ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ (مَن نسِي صلاةً فليصلِّها إذا ذكَرَها، لا كفَّارة لها إلاَّ ذلك) وفي رواية (مَن نسِي صلاة، أو نام عنْها فكفَّارتُها أن يصلِّيها إذا ذكَرَها) متفق عليه.

وجه الدّلالة: أنَّ هذا أمر بقضاء الفائتة إذا ذكرت، وهو عامّ يشمل وقت النَّهي، وغيره، ويؤيِّد هذا العموم قضاء النَّبيِّ ﷺ لسنَّة العصْر، وإقراره لِمَن صلَّى بعد الصبح.

ب-ولحديث أُمِّ سَلَمَةَ -حديث الباب- (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ فَسَأَلْتُهُ عَنْهُمَا ...) .

وجه الدلالة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قضى سنَّة الظهر بعد العصر، وهو وقت نَهي، وهو نصٌّ صريح في محلِّ النِّزاع .

يقول ابن تيمية رحمه الله -... وهو قضاء النَّافلة في وقْت النَّهي، مع إمكان قضائها في غير ذلك الوقت.

ج- ولحديث قَيْسِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ (رَأَى النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يُصَلِّي بَعْدَ صَلاةِ الصُّبْحِ رَكْعَتَيْنِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَصَلاةَ الصُّبْحِ مَرَّتَيْنِ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: إِنِّي لَمْ أَكُنْ صَلَّيْتُ الرَّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا، فَصَلَّيْتُهُمَا. قَالَ: فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ) رواه ابن ماجه

وجه الدلالة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أقرَّ قيسًا على قضائه راتبةَ الصبح في وقت النَّهي، فدلَّ على أنَّ الرَّواتب تقضى في وقت النَّهي.

قال ابن قدامة: وسكوت النبي ﷺ يدل على الجواز.

د-أنَّ ذوات الأسْباب إنَّما دعا إليْها داع، ولم تفعل لأجل الوقت، بخلاف التطوُّع المطلق الذي لا سبب له، وحينئذٍ فمفسدة النَّهي إنَّما تنشأ ممَّا لا سبب له دون ما له السَّبب، ولهذا قال في حديث ابن عمر (لا تتحرَّوا بصلاتِكم طلوع الشَّمس ولا غروبها).

هـ-أنَّ النَّهي كان لسدِّ ذريعة الشِّرْك، وذوات الأسباب فيها مصلحة راجحة، والفاعل يفعلها لأجل السَّبب، لا يفعلها مطلقًا فتمتنع المشابهة.

القول الثاني: أنَّ السنن الرَّواتب لا تقضى في الأوقات المنهيِّ عنها.

وهو قول الحنفية، والمالكية، ومذهب الحنابلة.

واستدلوا بالأحاديث العامة التي سبقت في النهي عن الصلاة بعد العصر وبعد الصبح.

القول الثالث: التَّفريق بين وقْت النَّهي الَّذي بعد العصر، وبين غيره من أوقات النهي، فتقضى الفائتة بعد العصر، ولا تقضى في غيره من أوقات النَّهي.

وهو اختيار الموفق ابن قدامة من الحنابلة حيث يقول -رحمه الله- بعد كلامه عن قضاء سنَّة الفجر، والخلاف فيها: إذا كان الأمر هكذا كان تأخيرُها إلى وقْت الضحى أحسنَ لنخرج من الخلاف، ولا نخالف عموم الحديث، وإن فعلها فهو جائز؛ لأنَّ الخبر لا يقصر عن الدلالة على الجواز ... وأمَّا قضاء السنن بعد العصر فالصَّحيح جوازه.

أ-أنَّ قضاء النافلة بعد العصر قد ثبت في الأحاديث كما في حديث أم سلمة -رضي الله عنها- حيث قضى النَّبيُّ ﷺ سنة الظهر بعد العصر.

ب-أنَّ النَّهي عن الصَّلاة بعد العصر أخفُّ من غيره من الأوقات الأخرى؛ لما روي في خلافه من الرخصة، ولاختلاف الصَّحابة ﷺ فيه فلا يلحق بغيره.

والراجح القول الأول.

٢-ماذا أجاب من منع قضاء الفائتة بعد العصر عن أحاديث الباب في فعل النبي ﷺ ؟

أجابوا عن صلاة النبي ﷺ بعد العصر بأجوبة:

بعض العلماء قال: إنها منسوخة.

وبعضهم قال: هي من خصوصياته ﷺ

وبعضهم احتج بحديث أم سلمة. قَالَتْ: (صَلَّى رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ اَلْعَصْرَ، ثُمَّ دَخَلَ بَيْتِي، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: "شُغِلْتُ عَنْ رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ اَلظُّهْرِ، فَصَلَّيْتُهُمَا اَلْآنَ"، قُلْتُ: أَفَنَقْضِيهِمَا إِذَا فَاتَتْنَا؟ قَالَ: لا) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ.

وهذا الزيادة (أَفَنَقْضِيهِمَا إِذَا فَاتَتْنَا؟ قَالَ: لا) لا تصح، وقد ضعفها: ابن حزم، وابن حجر، والبيهقي.

وأصل الحديث في الصحيحين دون هذه الزيادة

والراجح : أن من فاتته راتبة الظهر لنسيان أو انشغل عنها فله أن يصليها بعد العصر، لكن لا يداوم عليها، فالمداومة عليها هي من خصوصيات النبي ﷺ .

وقد جاء في صحيح مسلم عن عائشة (كان إذا عمل عملاً أثبته).

وهذا رجحه البيهقي وقال: الذي اختص به ﷺ المداومة على ذلك لا أصل القضاء.

ورجح هذا القول ابن حجر وابن القيم والألباني.

جاء صحيح مسلم -كما في حديث الباب- عن أبي سلمة أنه سأل عائشة عن السجدتين اللتين كان رسول الله ﷺ يصليهما بعد العصر فقالت: كان يصليهما قبل العصر ثم إنه شغل عنهما أو نسيهما فصلاهما بعد العصر، ثم أثبتهما، وكان إذا صلى صلاة أثبتها .

فمداومته عليها خصوصية كما هو ظاهر.

قال النووي : ... أَنَّ السُّنَن الرَّاتِبَة إِذَا فَاتَتْ يُسْتَحَبّ قَضَاؤُهَا، وَهُوَ الصَّحِيح عِنْدنَا، وَمِنْهَا أَنَّ الصَّلَاة الَّتِي لَهَا سَبَب لَا تُكْرَه فِي وَقْت النَّهْي، وَإِنَّمَا يُكْرَه مَا لَا سَبَب لَهَا. وَهَذَا الْحَدِيث هُوَ عُمْدَة أَصْحَابنَا فِي الْمَسْأَلَة وَلَيْسَ لَنَا أَصَحُّ دَلَالَة مِنْهُ، وَدَلَالَته ظَاهِرَة.

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ دَاوَمَ النَّبِيّ ﷺ عَلَيْهَا ، وَلَا يَقُولُونَ بِهَذَا ؟

قُلْنَا : لِأَصْحَابِنَا فِي هَذَا وَجْهَانِ حَكَاهُمَا الْمُتَوَلِّي وَغَيْره :

أَحَدهمَا : الْقَوْل بِهِ ، فَمَنْ دَأْبه سُنَّة رَاتِبَة فَقَضَاهَا فِي وَقْت النَّهْي كَانَ لَهُ أَنْ يُدَاوِم عَلَى صَلَاة مِثْلهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْت .

وَالثَّانِي : وَهُوَ الْأَصَحّ الْأَشْهَر لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ ، وَهَذَا مِنْ خَصَائِص رَسُول اللَّه ﷺ ، وَتَحْصُل الدَّلَالَة بِفِعْلِهِ ﷺ فِي الْيَوْم الْأَوَّل .

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا خَاصّ بِالنَّبِيِّ ﷺ قُلْنَا : الْأَصْل الِاقْتِدَاء بِهِ ﷺ وَعَدَم التَّخْصِيص حَتَّى يَقُوم دَلِيل بِهِ ، بَلْ هُنَا دَلَالَة ظَاهِرَة عَلَى عَدَم التَّخْصِيص وَهِيَ أَنَّهُ ﷺ بَيَّنَ أَنَّهَا سُنَّة الظُّهْر وَلَمْ يَقُلْ هَذَا الْفِعْل مُخْتَصّ بِي ، وَسُكُوته ظَاهِر فِي جَوَاز الِاقْتِدَاء . (شرح مسلم)

وعلى ذلك : فإنه يشرع لكل أحد قضاء راتبة الظهر ونحوها بعد العصر ، إذا فاتت لعذر .

وأما الاستدامة على صلاة الركعتين في هذا الوقت : فهي من خصائصه ﷺ .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : تَمَسَّكَ بِهَذِهِ الرِّوَايَات مَنْ أَجَازَ التَّنَفُّل بَعْدَ الْعَصْر مُطْلَقًا ، مَا لَمْ يَقْصِد الصَّلَاة عِنْدَ غُرُوب الشَّمْس ، وَأَجَابَ عَنْهُ مَنْ أَطْلَقَ الْكَرَاهَة : بِأَنَّ فِعْلَهُ هَذَا يَدُلّ عَلَى جَوَاز اِسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَ مِنْ الرَّوَاتِب مِنْ غَيْر كَرَاهَة ، وَأَمَّا مُوَاظَبَته ﷺ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ خَصَائِصه ، وَالدَّلِيل عَلَيْهِ رِوَايَة ذَكْوَانَ مَوْلَى عَائِشَة أَنَّهَا حَدَّثَتْهُ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يُصَلِّي بَعْدَ الْعَصْر وَيَنْهَى عَنْهَا ، وَيُوَاصِل وَيَنْهَى عَنْ الْوِصَال " رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَرِوَايَة أَبِي سَلَمَةَ عَنْ عَائِشَة فِي نَحْو هَذِهِ الْقِصَّة وَفِي آخِرِه " وَكَانَ إِذَا صَلَّى صَلَاة أَثْبَتَهَا " رَوَاهُ مُسْلِم ، قَالَ الْبَيْهَقِيُّ : الَّذِي اِخْتَصَّ بِهِ ﷺ الْمُدَاوَمَة عَلَى ذَلِكَ لَا أَصْلُ الْقَضَاء .

وسئل ابن عثيمين : ما صحة الحديث الذي روته أم سلمة : (أن النبي ﷺ صلى ركعتين بعد العصر)؟

الجواب: هذا صحيح؛ لأن النبي ﷺ لما شغل عن الركعتين بعد الظهر .. جاءه وفد فانشغل بهم ثم قضاها بعد صلاة العصر، ثم داوم عليها؛ لأن من عادته أنه إذا عمل عملاً أثبته فأثبتها عليه الصلاة والسلام، لكن غيره لا يحل له ذلك، له أن يصلي راتبة الظهر إذا فاتته بنسيان أو انشغال بعد صلاة العصر لكنه لا يداوم على هذا، فهذا وجه الحديث.

٣-وَمِنْ فَوَائِده أَنَّ صَلَاة النَّهَار مَثْنَى مَثْنَى كَصَلَاةِ اللَّيْل ، وَهُوَ مَذْهَبنَا ، وَمَذْهَب الْجُمْهُور ، وَقَدْ سَبَقَتْ الْمَسْأَلَة .

٤-أَنَّهُ إِذَا تَعَارَضَتْ الْمَصَالِح وَالْمُهِمَّات بُدِئَ بِأَهَمِّهَا ، وَلِهَذَا بَدَأَ النَّبِيّ ﷺ بِحَدِيثِ الْقَوْم فِي الْإِسْلَام ، وَتَرَكَ سُنَّة الظُّهْر حَتَّى فَاتَ وَقْتهَا ؛ لِأَنَّ الِاشْتِغَال بِإِرْشَادِهِمْ وَهِدَايَتهمْ وَقَوْمهمْ إِلَى الْإِسْلَام أَهَمُّ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ (كُنَّا بِالْمَدِينَةِ فَإِذَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ لِصَلاَةِ الْمَغْرِبِ ابْتَدَرُوا السَّوَارِيَ فَيَرْكَعُونَ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ الْغَرِيبَ لَيَدْخُلُ الْمَسْجِدَ فَيَحْسِبُ أَنَّ الصَّلاَةَ قَدْ صُلِّيَتْ مِنْ كَثْرَةِ مَنْ يُصَلِّيهِمَا) .

[خ : ٦٢٥] .

وعنه قال (... وَكُنَّا نُصَلِّى عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ قَبْلَ صَلاَةِ الْمَغْرِبِ. فَقُلْتُ لَهُ أَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلاَّهُمَا قَالَ كَانَ يَرَانَا نُصَلِّيهِمَا. فَلَمْ يَأْمُرْنَا وَلَمْ يَنْهَنَا) .

==========

(**كُنَّا بِالْمَدِينَةِ فَإِذَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ لِصَلاَةِ الْمَغْرِبِ ابْتَدَرُوا**) تسارعوا ، وفي البخاري (لقد رأيت كبار أصحاب النبيّ ﷺ يبتدرون السواري) وفي رواية النسائيّ (قام ناس من أصحاب النبيّ ﷺ) .

(**السَّوَارِيَ**) جمع سارية ، وهي الأُسطوانة، وكأنّ غرضهم بالاستباق إليها الاستتار بها ممن يمر بين أيديهم؛ لكونهم يصلّون فرادى، قاله في "الفتح".

(**فَيَرْكَعُونَ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ الْغَرِيبَ**) أي: الذي جاء من خارج المدينة .

(**لَيَدْخُلُ الْمَسْجِدَ**) النبوي .

(**فَيَحْسِبُ**) أي : فيظن .

(**أَنَّ الصَّلاَةَ**) فريضة المغرب .

(**قَدْ صُلِّيَتْ مِنْ كَثْرَةِ مَنْ يُصَلِّيهِمَا**) أي : سنة المغرب .

(**رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ قَبْلَ صَلاَةِ الْمَغْرِبِ**) سنة المغرب .

(**فَقُلْتُ لَهُ أَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلاَّهُمَا قَالَ كَانَ يَرَانَا نُصَلِّيهِمَا. فَلَمْ يَأْمُرْنَا وَلَمْ يَنْهَنَا**) أي: لَمْ يأمرنا ﷺ بهاتين الركعتين، ولم ينهنا عنهما، بل أقرّنا عليهما، ففي إقراره دليل على سنيّتهما.

١-استحباب صلاة ركعتين قبل المغرب، وهذه السنة ثبت عن النبي ﷺ قولاً وفعلاً وإقراراً.

قولاً: ففي صحيح البخاري : عن عَبْدُ اللهِ الْمُزَنِيُّ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (صَلُّوا قَبْلَ صَلاَةِ الْمَغْرِبِ- قَالَ فِي الثَّالِثَةِ - لِمَنْ شَاءَ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَتَّخِذَهَا النَّاسُ سُنَّةً) .

وفعلاً: فقد كان ﷺ يصلي قبل المغرب.

وإقراراً: إقراره ﷺ للصحابة وهم يصلون قبل المغرب كما في حديث الباب.

٢-قد اختلف العلماء في صلاة ركعتين قبل المغرب على أقوال:

القول الأول: أنه يسن صلاة ركعتين قبل المغرب.

وإليه ذهب الشافعية وابن حزم .

أ-لحديث عبد الله بن مغفل السابق (صلوا قبل المغرب ...) رواه البخاري .

وبوب عليه الإمام البخاري رحمه الله بقوله : باب الصلاة قبل المغرب . وفي لفظ رواية أبي داود للحديث نفسه (صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرِبِ رَكْعَتَيْنِ) .

ب- ولحديث أنس -حديث الباب- (كَانَ يَرَانَا نُصَلِّيهِمَا. فَلَمْ يَأْمُرْنَا وَلَمْ يَنْهَنَا) .

وفي رواية (حتى إن الرجل الغريب ليدخل المسجد فيحسب أن الصلاة قد صليت، من كثرة من يصليهما) .

قال أبو محمد بن حزم بعد ذكره لهذه الرواية: فهذا عموم للصحابة ﷺ.

جـ- ولحديث أنس أيضاً قال (لقد رأيت كبار أصحاب النبي ﷺ يبتدرون السواري عند المغرب) رواه البخاري.

وأخرج هذه الرواية عبد الرزاق بلفظ (لقد رأيت اللباب من أصحاب رسول الله ﷺ إذا نودي بالمغرب ابتدروا السواري، ليصلوا ركعتين قبل المغرب).

د-وعن زر بن حبيش قال : كان عبد الرحمن بن عوف ، وأبي بن كعب يصليان الركعتين قبل المغرب . رواه عبد الرزاق .

ولذلك قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : ما أكثر ما جاء فيه من الحديث .

قال القرطبي: ظاهر حديث أنس: أن الركعتين بعد غروب الشمس وقبل صلاة المغرب كان أمرًا قرّر النبي ﷺ أصحابه عليه. وأنهم علموا بذلك، وتظافروا عليه، حتى كانوا يبتدرون السواري لذلك. وهذا يدلُّ على الجواز وعدم الكراهية، بل على الاستحباب لا سيّما مع قوله ﷺ (بين كل أذانين صلاة) وإلى جواز ذلك ذهب كثير من السلف، وأحمد، وإسحاق.

قال ابن القيم -رحمه الله- هذا هو الصواب في هاتين الركعتين: أنهما مستحبتان مندوب إليهما، وليستا بسنة راتبة كسائر السنن الرواتب، وكان يصلي عامة السنن، والتطوع الذي لا سبب له في بيته، لا سيما سنة المغرب، فإنه لم ينقل عنه أنه فعلها في المسجد ألبتة .

القول الثاني: أنها لا تشرع.

وهو المعتمد في مذهب الحنفية ، أي أنها غير مستحبة عندهم ، بل خلاف الأولى ، وشدد المالكية في المعتمد من مذهبهم حتى قالوا بالكراهة .

قال النووي: ولم يستحبها أبو بكر وعمر وعثمان وآخرون من الصحابة، ومالك وأكثر الفقهاء.

جاء في (**الموسوعة الفقهية**) ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ إِلَى كَرَاهَةِ التَّنَفُّل قَبْل صَلاَةِ الْمَغْرِبِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: بَيْنَ كُل أَذَانَيْنِ إِلاَّ الْمَغْرِبَ، وَالْمُرَادُ بِالأَْذَانَيْنِ: الأَْذَانُ وَالإِْقَامَةُ . (الموسوعة)

أ-عَنْ طَاوُوسٍ قَالَ: سُئِلَ ابْنُ عُمَرَ عَنْ الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْمَغْرِبِ فَقَالَ (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّيهِمَا، وَرَخَّصَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ) رواه أبو داود .

ب- ولحديث (إن عند كل أذانين ركعتين، ما خلا صلاة المغرب) لكن هذه الزيادة لا تصح.

ج- أن التنفل بعد غروب الشمس وقبل صلاة المغرب يؤدي إلى تأخير صلاة المغرب، وهو مكروه، وما يؤدي إلى المكروه مكروه.

ج- ما رواه إبراهيم النخعي رحمه الله قال: لم يصل أبو بكر، ولا عمر، ولا عثمان الركعتين قبل المغرب، رواه عبدالرزاق.

والراجح القول الأول، وهو استحباب صلاة ركعتين بعد الغروب وقبل صلاة المغرب.

والجواب عن أدلة القول الثاني:

قال النووي: وَالْمُخْتَار اِسْتِحْبَابهَا لِهَذِهِ الْأَحَادِيث الصَّحِيحَة الصَّرِيحَة ، وَفِي صَحِيح الْبُخَارِيّ عَنْ رَسُول اللَّه ﷺ: (صَلُّوا قَبْل الْمَغْرِب ، صَلُّوا قَبْل الْمَغْرِب ، صَلُّوا قَبْل الْمَغْرِب ، قَالَ فِي الثَّالِثَة : لِمَنْ شَاءَ) وَأَمَّا قَوْلهمْ : يُؤَدِّي إِلَى تَأْخِير الْمَغْرِب فَهَذَا خَيَال مُنَابِذ لِلسُّنَّةِ فَلَا يُلْتَفَت إِلَيْهِ ، وَمَعَ هَذَا فَهُوَ زَمَن يَسِير لَا تَتَأَخَّر بِهِ الصَّلَاة عَنْ أَوَّل وَقْتهَا ، وَأَمَّا مَنْ زَعَمَ النَّسْخ فَهُوَ مُجَازِف ؛ لِأَنَّ النَّسْخ لَا يُصَار إِلَيْهِ إِلَّا إِذَا عَجَزْنَا عَنْ التَّأْوِيل وَالْجَمْع بَيْن الْأَحَادِيث وَعَلِمْنَا التَّارِيخ ، وَلَيْسَ هُنَا شَيْء مِنْ ذَلِكَ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . (شرح مسلم)

وقال النووي -رحمه الله- أيضاً: أمَّا الحديث الذي رواه أبو داود عن ابن عمر أنه قال (ما رأيتُ أحدًا يصلي ركعتين قبل المغرب على عهد رسول الله ﷺ) فإسناده حسن، وأجاب العلماء عنه بأنه نفي، فيجب تقديم رواية المثبتين لهذه الصلاة لكثرتهم؛ ولما معهم من علم ما لم يعلمه ابن عمر .

وقال ابن حجر الهيتمي الشافعي رحمه الله: هما سنة غير مؤكدة على الصحيح -وذكر الأدلة السابقة- ثم قال: وقول ابن عمر (ما رأيت أحدا يصليهما على عهد رسول الله ﷺ) نفي غير محصور، وزعم أنه محصور عجيب، إذ من المعلوم أن كثيراً من الأزمنة في عهده ﷺ لم يحضره ابن عمر، ولا أحاط بما وقع فيه، على أنه لو فرض الحصر فالمثبت معه زيادة علم فليقدم وبفرض التساقط يبقى معنا (صلوا قبل المغرب ركعتين) إذ لا معارض له، والخبر الصحيح السابق (بين كل أذانين -أي أذان وإقامة- صلاة) إذ هو يشملهما نصاً، ومن ثَمَّ أخذوا منه ندب ركعتين قبل العشاء . (تحفة المحتاج)

وقال ابن سيد الناس -رحمه الله- وقال النخعي: هما بدعة، ولعله لم يبلغه الحديث في ذلك، وظاهر هذه الأحاديث: أنَّ فعْل هذه الصلاة قبل المغرب كان أمرًا أقر النبي ﷺ أصحابه عليه، وأنهم عملوا بذلك، وتضافروا عليه حتَّى كانوا يبتدرون السواري لذلك، وهذا يدل على الجواز، وعدم الكراهية، بل على الاستحباب.

٣- هل هذه السنة من السنن الرواتب؟

لا، ليست من السنن الرواتب.

أ-لقوله (كراهية أن يتخذها الناس سنة).

ب-ولأنه لم يثبت أن النبي ﷺ واظب عليها.

قال الإمام ابن القيم بعد ذكره لحديث عبد الله بن مغفل المزني (صلوا قبل صلاة المغرب، صلوا قبل صلاة المغرب " قال في الثالثة: " لمن شاء) كراهة أن يتخذها الناس سنة، قال رحمه الله: وهذا هو الصواب في هاتين الركعتين، أنهما مستحبتان مندوب إليهما، وليستا بسنة راتبة كسائر السنن الرواتب.

٤-قوله (كَرَاهِيَةَ أَنْ يَتَّخِذَهَا النَّاسُ سُنَّةً) .

قال العيني -رحمه الله- (كراهيةَ أنْ يتخذها الناس سُنة) وفي رواية أبي داود (خشية أنْ يتخذها الناس سُنة) ومعنى سُنَّة: طريقة لازمة يواظبون عليها.

وقال المحب الطبري -رحمه الله- قوله (كراهية أنْ يتخذها الناس سُنة) لم يرد نفي استحبابها، وكيف يكون آمرًا بما لا يُستحب؟! بل ذلك أدل دليل على استحبابها، والحث عليها، وإنَّما أراد: بالسُّنة الشريعة اللازمة، والطريقة الثابتة، والسُّنة قد تُطلَق ويُراد بها ذلك، نحو: مضت السُّنة في كل أربعين جُمعة، وأراد بذلك: انحطاط مرتبتها عن السُّنة الراتبة مع الفرائض .

٥-**قال البغوي** -رحمه الله- في الحديث: دليل على أنَّ أمر النبي على الوجوب حتى يقوم دليل الإباحة، وكذلك نهيه على التحريم إلا ما تُعْرَفُ إباحته .

٦-أن وقت الركعتين يبدأ بعد الأذان؛ لأن فعل الصحابة كان عقب أذان المؤذن.

٧-أن السنة قد تكون بفعل النبي ﷺ أو بتقريره أو بفعل الصحابة مع علم النبي ﷺ وإقراره؛ وقد كان الصحابة يصلون هاتين الركعتين على عهد النبي ﷺ.

٨-مشروعية تخفيف الركعتين؛ لأن المقصود منهما اغتنام الوقت بين الأذان والإقامة، مع عدم الإخلال بأركان الصلاة وطمأنينتها.

٩-جواز الصلاة في المسجد بين الأذان والإقامة، واتخاذ الأعمدة أو السواري مواضع للصلاة عند الحاجة.

١٠-بيان شدة حرص الصحابة على النوافل، حتى أصبح المسجد ممتلئًا بالمصلين قبل الفريضة.

١١-قوة انتشار السنة بين الصحابة؛ فكثرة من كانوا يصلون الركعتين تدل على أنها كانت سنة معروفة بينهم.

١٢-أن المحافظة على السنة قد تجعلها ظاهرة في المجتمع المسلم؛ حتى إن الغريب كان يظن أن صلاة المغرب قد انتهت.

١٣-أن إقرار النبي ﷺ دليل يعمل به.

قال ابن حجر: وقد اتفقوا على أن تقرير النبي ﷺ لما يفعل بحضرته أو يقال، ويطلع عليه بغير إنكار دال على الجواز .

قال الشيخ ابن عثيمين: أن ما فعله الصحابة في عهد النبي ﷺ فهو حجة سواء علمنا أنه اطلع عليه أم لم نعلم، فإن علمنا أنه اطلع عليه فواضح أنه حجة، وجه وضوحه: إقرار النبي ﷺ على ذلك.

وإن لم نعلم أنه اطلع عليه فقد اطلع عليه الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وسكوت الله عنه دليل على أنه رضيه، لأنه لو فعل أحدٌ شيئًا على وجه الاختفاء والله تعالى لا يرضاه بينه الله.

فتقرير النبي ﷺ (السنة التقريرية) وهو أن يسكت النبي (عن إنكار قول قيل، أو فعل فعل بين يديه، أو في عصره وعلم به، وسكوته هذا يفيد جواز هذا الأمر.

ومما يدل على أن إقرار النبي ﷺ حجة:

أ- عن أبي هريرة (أَنَّ عُمَرَ مُرَّ بِحَسَّانَ يَنْشُدُ فِي الْمَسْجِدِ، فَلَحَظَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: "قَدْ كُنْتُ أَنْشُدُ، وَفِيهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ

ب- عن أنس بن مالك لما سئل وهو غاد إلى عرفة: كيف كنتم تصنعون في هذا اليوم مع رسول الله ﷺ ؟ فقال: كان يهل منا المهل فلا ينكر عليه، ويكبر منا المكبر فلا ينكر عليه) رواه البخاري.

ج- وعن ابن عباس قال (أقبلت راكباً على حمار أتان وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام، ورسول الله ﷺ يصلي بالناس بمنى إلى غير جدار، فمررت بين يدي بعض الصف، فنزلت وأرسلت الأتان ترتع، ودخلت في الصف، فلم ينكر ذلك علي أحد). متفق عليه

د-وها هو البخاري يبين هذا الأمر في ترجمة باب من أبواب كتاب الاعتصام بالسنة، فيقول فيها: باب من رأى ترك النكير من النبي ﷺ حجة، لا من غير الرسول، وروى بسنده عن محمد بن المنكدر أنه قال: رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله أن ابن الصياد الدجال، قلت: تحلف بالله؟ قال: إني سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبي ﷺ فلم ينكره النبي ﷺ .

قال ابن حجر موضحا هذه الترجمة بقوله: وقد اتفقوا على أن تقرير النبي ﷺ لما يفعل بحضرته أو يقال، ويطلع عليه بغير إنكار دال على الجواز، لأن العصمة تنفي عنه ما يحتمل في حق غيره مما يترتب على الإنكار فلا يقر على باطل.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ الْمُزَنِي قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلاَةٌ – قَالَهَا ثَلاَثًا قَالَ فِي الثَّالِثَةِ – لِمَنْ شَاءَ) .

[خ : ٦٢٧] .

==========

(بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ) أي : الأذان والإقامة .

قال الخطابي -رحمه الله- أراد بالأذانين: الأذان والإقامة، حمل أحد الاسمين على الآخر، والعرب تفعل ذلك كقولهم: الأسودين للتمر والماء، وإنما الأسود أحدهما، وكقولهم: سيرة العمرين يريدون أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما- .

وقال ابن الجوزي -رحمه الله- المراد بالأذانين: الأذان والإقامة، فلما أضيفت الإقامة إلى الأذان سميت باسمه، كما قيل: العمران، والمراد: أبو بكر وعمر .

١-الحديث دليل على أن بين كل أذان وإقامة يشرع أن يصلي الإنسان ركعتين نافلة .

وجاء عن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ ﷺ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال (ما مِن صلاةٍ مفروضةٍ إلَّا وبين يديها رَكعتان) رواه ابن حبان .

قال البيضاوي -رحمه الله- المعنى: أنه يُسن أن يصلي بين كل أذان وإقامة صلاة .

وقال ابن بطال -رحمه الله- وأما قوله (بين كل أذانين صلاة) فإنه يريد بين الأذان والإقامة موضع صلاة لمن شاء، لا خلاف في ذلك بين العلماء إلا صلاة المغرب وحدها، فإنهم اختلفوا في الركوع قبلها، فأجازه أحمد وإسحاق، واحتجا بهذا الحديث، وأباه سائر الفقهاء .

وقال ابنُ حَجر: ولم يَختلفِ العلماء في التطوُّع بين الأذان والإقامة، إلَّا في المغرب .

وقال ابن رجب : وحديث ابن مغفل يدخل فيه: الصلاة بين الأذان والإقامة في جميع الصلوات الخمس، فأما أذان الصبح فيشرع بعده ركعتا الفجر، ولا يزاد عليهما عند جمهور العلماء .

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- (بين كل أذانين) يعني: الأذان والإقامة، صلاة الفجر بين الأذان والإقامة سنة راتبة، الظهر بين الأذان والإقامة سنة راتبة، العصر ليس لها راتبة قبلها ولا بعدها؛ لكن تدخل في هذا الحديث أن الإنسان إذا أذن للعصر فليصلِّ ركعتين قبل الإقامة، المغرب كذلك ليس لها سنة راتبة قبلها؛ لكن يُسن أن يصلي ركعتين بعد الأذان، وقد ورد فيها حديث بخصوصها، قال: «صلوا قبل المغرب ثلاثًا» وقال في الثالثة: «لمن شاء» العشاء كذلك ليس لها راتبة قبلها؛ لكن تدخل في الحديث أن يصلي بعد الأذان، وقبل الإقامة ركعتين .

٢-وإنما حرض رسول الله ﷺ على صلاة النفل بين الأذان والإقامة؛ لأن الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة؛ لشرف ذلك الوقت، وإذا كان الوقت أشرف، يكون ثواب العبادات فيه أكثر.

٣-قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- ووجه هذا الحديث: أنه إذا أُذِّن للصلاة فقد خرج وقت النهي، فتجوز الصلاة حينئذٍ -والله تعالى أعلم-.

٤-**قال ابن حجر** -رحمه الله- ومجموع الأدلة يرشد إلى استحباب تخفيفهما كما في ركعتي الفجر، قيل: والحكمة في الندب إليهما: رجاء إجابة الدعاء؛ لأن الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد، وكلما كان الوقت أشرف كان ثواب العبادة فيه أكثر.

٥-قال ابنُ الجوزي: فإن قيل: فلِمَ خصَّ التطوع بهذا الوقت، وقد علم أنه يجوز في غيره؟

فالجواب: أنه قد يجوز أن يتوهَّم أنَّ الأذان للصلاة يمنع أن يُفعل سوى الصلاة التي أذن لها، فبيَّن جواز التطوع .

٦-مشروعية الفصل بين الأذان والإقامة .

أ-لحديث الباب .

ووجه الدلالة من الحديث: أنه دل على عدم الوصل بين الأذان والإقامة، بل بينهما وقت تؤدّى فيه صلاة النافلة، لأن الأذانين المقصود بهما، الأذان والإقامة.

ب-ولحديث جَابِرٍ (أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ قَالَ لِبِلَالٍ : إِذَا أَذَّنْتَ فَتَرَسَّلْ ، وَإِذَا أَقَمْتُ فَاحْدُرْ ، وَاجْعَلْ بَيْنَ أَذَانِكَ وَإِقَامَتِكَ قَدْرَ مَا يَفْرُغُ اَلْآكِلُ مِنْ أَكْلِهِ) اَلْحَدِيثَ، رَوَاهُ اَلتِّرْمِذِيُّ وَضَعَّفَهُ.

ج-ولحديث عائشة قالت: (كان النبي ﷺ يصلي ركعتين خفيفتين بين النداء والإقامة من صلاة الصبح) متفق عليه.

د-ولحديث أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ (يا بلال اجعل بين أذانك وإقامتك نفساً، يفرغ الآكل من طعامه في مَهَل، ويقضي المتوضئ حاجته في مَهَل). رواه عبد الله ابن الإمام أحمد، وهو ضعيف .

هـ-ولأن الأذان شرع للإعلام فيسن الانتظار ليدرك الناس الصلاة ويتهيؤوا لها.

جاء في (**الموسوعة الفقهية**) صَرَّحَ الْفُقَهَاءُ بِاسْتِحْبَابِ الْفَصْلِ بَيْنَ الأَْذَانِ وَالإِْقَامَةِ بِصَلاَةٍ أَوْ جُلُوسٍ أَوْ وَقْتٍ يَسَعُ حُضُورَ الْمُصَلِّينَ فِيمَا سِوَى الْمَغْرِبِ، مَعَ مُلاَحَظَةِ الْوَقْتِ الْمُسْتَحَبِّ لِلصَّلاَةِ.

وَتُكْرَهُ عِنْدَهُمُ الإِْقَامَةُ لِلصَّلاَةِ بَعْدَ الأَْذَانِ مُبَاشَرَةً بِدُونِ هَذَا الْفَصْلِ، وَذَلِكَ لِمَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَال لِبِلاَلٍ: اجْعَل بَيْنَ أَذَانِكَ وَإِقَامَتِكَ نَفَسًا حَتَّى يَقْضِيَ الْمُتَوَضِّئُ حَاجَتَهُ فِي مَهْلٍ، وَحَتَّى يَفْرُغَ الآْكِل مِنْ أَكْل طَعَامِهِ فِي مَهْلٍ ... وَفِي رِوَايَةٍ: لِيَكُنْ بَيْنَ أَذَانِكَ وَإِقَامَتِكَ مِقْدَارُ مَا يَفْرُغُ الآْكِل مِنْ أَكْلِهِ، وَالشَّارِبُ مِنْ شُرْبِهِ، وَالْمُعْتَصِرُ إِذَا دَخَل لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ.

وَلأَِنَّ الْمَقْصُودَ بِالأَْذَانِ إِعْلاَمُ النَّاسِ بِدُخُول الْوَقْتِ لِيَتَهَيَّئُوا لِلصَّلاَةِ بِالطَّهَارَةِ فَيَحْضُرُوا الْمَسْجِدَ، وَبِالْوَصْل يَنْتَفِي هَذَا الْمَقْصُودُ، وَتَفُوتُ صَلاَةُ الْجَمَاعَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. (الموسوعة)

-لكن في صلاة المغرب فإنه يستحب أن يكون الفاصل يسيراً، لأنه من السنة تقديم صلاة المغرب وتعجيلها عقيب غروب الشمس.

كما جاء في حديث جابر قال (كان النبي ﷺ يصلي المغرب إذا وجبت).

وحديث رافع بن خديج قال (كنا نصلي المغرب مع النبي ﷺ فينصرف أحدنا وإنه ليبصر مواقع نبله) متفق عليه

ومقدار هذا الفصل مختلف فيه: والأرجح أنه بمقدار ركعتين خفيفتين.

لحديث عبد الله بن مغفل -وقد تقدم- أن النبي (قال ﷺ صلوا قبل المغرب ...) .

٧-اغتنام الوقت بين الأذان والإقامة بالطاعة؛ لأن هذا الوقت من الأوقات الفاضلة.

٨-أن الصلاة بين الأذان والإقامة ليست واجبة، ولذلك قال النبي ﷺ في المرة الثالثة : لِمَنْ شَاءَ .

٩-الحث على الإكثار من النوافل؛ فالنوافل سبب لزيادة الأجر والتقرب إلى الله تعالى.

١٠-أن تكرار الك استحباب المبادرة إلى الصلاة بعد الأذان وعدم الانشغال بأمور الدنيا بلا حاجة.

١١-اغتنام الأوقات القصيرة؛ فالنبي ﷺ أرشد إلى استثمار الفترة بين الأذان والإقامة بصلاة نافلة.

١٢-أن أبواب الخير متعددة، فالإنسان يستطيع أن يملأ هذا الوقت بالصلاة أو الدعاء أو الذكر أو قراءة القرآن.

١٣-حرص النبي ﷺ على تعليم أمته السنن، حتى في الأمور التي قد يراها الناس يسيرة.

١٤-التأكيد على أهمية النوافل في جبر النقص في الفرائض؛ فقد جاءت النصوص ببيان فضل النوافل في تكميل ما يقع في الفرائض من نقص.